الطريق الى رمضان

محمد حسنين هيكل

الطريق الى رمضان
محمد حسنين هيكل

مقدمة

لم اكتب للطبعة الانجليزية من هذا الكتاب - وهي الاصل فيه - أية مقدمات ، وانما تركت الكتاب يقدم نفسه بنفسه وتركت للناس ان يحكموا عليه.

واعترف انني شعرت بكثير من العرفان عندما وجدت الكتاب ضمن قائمة اروج خمسة كتب في بريطانيا في اول أسبوع صدر فيه عن دار " كولينز" أكبر دور النشر في لندن .

ولم أكن انوي ان أكتب للطبعة العربية- وهي ترجمة له عن الانجليزية - أية مقدمات عملاً بنفس المنطق، منطق ان أترك الكتاب يقدم نفسه بنفسه، واترك للناس ان يحكموا له .

ولكن الضجة التي ثارت حينما نشرت بعض الأجزاء منه مسلسلة في " النهار" او منقولة عن " النهار "، هي التي دعتني الى محاولة كتابة مقدمة .

هل هي مقدمة بالضبط ؟

لا أظن !

هل هي محاولة رد؟

لا أظن أيضاً !

اقرب هي الى ان تكون ايضاحات سريعة اقدمها بغير ضغط او الحاح .

عندما بدأت "النهار" وتبعتها صحف اخرى في نشر حلقات مسلسلة من بعض فصول هذا الكتاب "الطريق الى رمضان " كنت في زيارة لايران ، أحاول ان استكمل كتابي القادم عن العالم العربي، بنظرة عليه، واقفا هناك عند تخومه القريبة جغرافيا او حضاريا .

وعدت لاجد ضجة لم تكن لي على بال ، ووجدت لازما علي ان اوضح وجهة نظري كاملة أمام من ساءهم بعض ما كتبت عن غيرقصد ، وبغيرسبب ، في صلب الكتاب يمكن ان يسيء!

قلت ما يأتي :

١- أليس الأولى قبل ابداء رأي في الكتاب ان ننتظر حتى يكون امامنا نص كامل له ، هل يمكن الحكم على كتاب من مقتطفات تنتقى منه للنشر الصحفي؟

حتى النقاد في العالم كله لا يحكمون على كتاب قبل ان يكون أمامهم، يعرض عليهم كل قصته، ومن ثم تكون امامهم الفرصة لتقييمه على أساس سليم .

فكيف اذا كان النقد أكبر من مجرد حكم أدبي ، وانما هو حكم سياسي؟!

٢- لماذا القفز بهذه السرعة الى مقولة " تزييف التاريخ "؟ ولماذا اقوم انا بذلك ، واي مصلحة لي فيه؟

عندما يقدم كاتب على تزييف التاريخ ، فهو يفعل ذلك لمصلحة.

يزيف التاريخ لحساب حاكم او لمصلحة سلطة، فالمصالح عند الاثنين .

المصالح عند الاحياء الاقوياء ، وليست عند الموتى والضعفاء.

٣- قد يكون هناك خطأ وقعت فيه ، ولكن ذلك اذا حدث له من حسن النية شفيع .

و أنا لم ادع لنفسي صفة المؤرخ .

الذين عاشوا وقائع من التاريخ لا يستطيعون التأريخ لها ، لأن رؤيتهم مشوبة بتجربتهم الذاتية، وقصارى ما يستطيعون تقديمه هو شهادة للتاريخ وليست تأريخا ، وهناك فارق ضخم بين الاثنين .

ومع ذلك فلعلني أكون أسعد الناس لو ان احدا قال لي : " أنك كتبت كذا وكذا... ولكن الحقيقة كانت كذا وكذا " .

ولو أنني اقتنعت لسجلت اقتناعي ، ولتراجعت عما كتبت شاكرا ومقدراً لشعاع من الحقيقة أنار امامي ما كان شاحبا او معتما!

٤- بالنسبة الى ما أبديت من آراء - بعد ما رويت من وقائع ما عشت - فان رأيي هو رأيي اتحمل مسؤوليته، وقد فعلت!

ولم أخف انه كان لي رأي مختلف في طريقة ادارة الصراع السياسي، منذ انتهت حرب اكتوبر العظيمة.

ولكنني قلت ، وما زلت اقول : ان هناك مسافة شاسعة بين الرأي وا لقرار.

الرأي حق لكل انسان .

وأما القرار فواجب ثقيل يحمله هؤلاء الذين وضعت فيهم الشعوب ثقتها، خصوصا اذا كانوا يتحركون ومن حولهم اجهزة مسؤولة تضع امامهم ادق المعلومات وتطرح امامهم كل المحتمل من البدائل والخيارات.

قلت ذلك في توضيح وجهة نظري كمنطق عام . ثم دخلت في بعض التفاصيل أتخذ منها مجرد نماذج لا اكثر ولا أقل . قلت :

- لقد ذكروا انني كتبت انه كانت هناك خطط لعمليات هجومية قبل خطة " بدر" التي نفذت بجسارة واقتدار في أكتوبر ١٩٧٣.

وهذا صحيح بالقطع ، ولست أعرف ماذا فيه يسيء الى أحد؟ أية اساءة الى احد ان اقول ان الفريق عبد المنعم رياض بدأ مع نهاية سنة ١٩٦٧ يضع التصورات الأولى لعملية هجومية؟

أليس ذلك واجب اي قائد عسكري، فضلاً عن قائد ممتاز في مكانة عبد المنعم رياض؟

أليس ذلك واجب اي جيش وطني، فضلاً عن جيش واجه صدمة لم يكن يستحقها سنة ١٩٦٧، واحس انه مسنود بارادة شعبية رفضت الهزيمة وقبلت كل مخاطر استمرار الصراع ؟

كانت هناك تصورات لخطة وضعها عبد المنعم رياض .

وكانت هناك خطة... بل خطط وضعت بينما الفريق محمد فوزي يتولى مسؤولية وزارة الحربية في مصر والقيادة العامة لقواتها المسلحة.

ولم يكن الاسم الرمزي للخطة " تحرير" ، وانما كانت " تحرير" مناورة عسكرية للتدريب ، ذلك ما قلته، وقلت ايضا ان الاسم الرمزي للخطة كان " جرانيت رقم واحد " ، وقد تبعتها خطة معدلة لها باسم "جرانيت رقم اثنين "، وكان هناك مشروع لم يكتمل باسم "جرانيت رقم ٣" .

ولا أريد أكثر من ذلك أن استطرد الى التفاصيل .

ولعلي أضيف ان احدا لا يمكن ان يتصور ان الخطوط التي وضعتها قيادة الجيش المصري تحت عبد المنعم رياض سنة ١٩٦٧، او ان الخطط التي وضعتها قيادة الجيش المصري تحت محمد فوزي ، كانت هي بذاتها التي اخرجت من الثلاجة في سنة ١٩٧٣، ونفذت باسم " بدر".

لا بد ان تغييرات كثيرة طرأت على هذه الخطط ، وفق الظروف المتغيرة ، ووفق تطور التسليح، وفق عوامل اخرى عديدة .

ولا يمكن اي خطوط سابقة على " بدر" ولا أي خطط قبلها ان تنقص من اهمية الجهد الذي بذل في اعداد "بدر" ، وكثير منه يعود الفضل فيه الى أحمد اسماعيل والى عبد الغني الجمسي .

ليس هناك عمل عظيم يقفز من الفراغ فجأة .

وليست هناك ثمار بغير اشجار... ولا اشجار بغير بذور !

ومع ذلك ، فان العبرة ليست بالخطط ... وانما العبر بالقرار السياسي الذي يضع هذه الخطط موضع التنفيذ، ولا يمكن قوة على الأرض ان تنسب قرار اكتوبر العظيم الى احد غير صانعه، وهو انور السادات... ذلك قرار سوف يظل مجدا مقيما له ، ومجدا مقيما لمصر، ومجدا مقيما للعرب .

ولقد كنت بنفسي اول من أطلق على أنور السادات وصف " صاحب قرار اكتوبر " ، ولا اظن ان انور السادات يريد مدخلاً الى التاريخ غير كونه فعلاً " صاحب قرار اكتوبر" العظيم .

قلت :

- لقد ذكروا أنني تحيزت للفريق محمد أحمد صادق ، ولا أظنني فعلت ذلك . لقد أدى الرجل واجبه والحكم عليه للتاريخ ، أخطأ أو أصاب .

ومع ذلك فلقد كنت مختلفا مع الفريق صادق ، وذلك واضح في " الطريق الى رمضان " في عدد من النقط :

- اختلفت معه في موقف من الاتحاد السوفياتي ظننت فيه انه يدفع الأمور الى أبعد مما تحتمل الامور.
- واختلفت معه في عدم تقديره لاهمية استراتيجية الحرب المحدودة ، باعتبارها الممكن الوحيد في عصرنا وفي ظروفنا ، خصوصاً اذا استطعنا استغلال اثارها السياسية ووصلنا بها الى نتائج ايجابية يمكن ان تكون بغير حدود .

وكان رأيي- على خلاف مع رأيه- أن الحرب المحدودة هي الحرب الوحيدة التي نستطيع ان نخوضها وأن نقودها- فضلاً عن ظروف العصر!

ولم تكن تربطني صداقة خاصة أو وثيقة بالفريق صادق ... لقد عرفت الرجل عندما كان يقود القوات المسلحة المصرية، وقدرت فيه مزاياه ، وأختلفت مع العديد من ارائه ، ولكني رفضت أن أقاطعه بعد ان فقد منصبه، ربما لاني أعتبر أن معرفة الناس من خلال مناصبهم - فقط - عيب لا يليق !

هذه هي الحقيقة.

قلت :
- لقد ذكروا أنني أعطيت للمملكة العربية السعودية دورا في قرار اخراج الخبراء السوفيات من مصر.

ولم يكن ذلك بين ما كتبت .

لقد أشرت الى بعض الشخصيات السعودية في معرض رسالة وصلت الى الرئيس السادات "من تحت المائدة" ، كما قال بنفسه في مؤتير صحفي ... رسالة قيل لى فيها " أرح نفسك... الباب هنا والمفتاح هنا ...والحل عندنا في واشنطن " .

قلت أن قرار اخراج الخبراء السوفيات كان في رأس أنور السادات ، وكان قد وصل اليه بعد ظروف رآها داعية اليه، وقد شرحت كثيرا من هذه الظروف ضمن فصول هذا الكتاب .

وفيما يتعلق بالرسالة التي جاءت " من تحت المائدة "- حسب تعبير الرئيس السادات- فلقد كان كل ما فعلته هو أنني تساءلت عن حمل هذه الرسالة؟ ".

ذلك كل شيء ! " .

ولقد تطور الهجوم علي- ولعلي أقول تدهور- الى درجة استعمال وصف "الكذاب " في أشارة الي صريحة.

والغريب أن ذلك كان في معرض كلا م يقول بأنه لم تكن هناك خطط هجومية مصرية ، قبل ان يتولى المشير الراحل أحمد اسماعيل قيادة القوات المسلحة المصرية .

وكان اعتقادي أن نقل هذا الكلام جاء مشوها ، فكيف يمكن ان يقال بأنه لم تكن هناك خطط هجومية مصرية قبل قيادة أحمد اسماعيل ، في حين أن احمد اسماعيل لم يتول منصبه الا في أكتوبر ١٩٧٢ . بينما نحن نتذكر أن الرئيس السادات أعلن سنة ١٩٧١ سنة للحسم ، وكان متجهاً الى معركة قبل نهايتها، لولا أن فاجأته ظروف الحرب في شبه القارة الهندية بين الهند وباكستان كما أعلن بنفسه للامة...

فهل يعقل انه كان متجهاً الى معركة من دون خطة ، أو أن المعقول أكثر- هو أنه كانت هناك خطط قبل أحمد اسماعيل؟

وأنا أحترم الرجل ، وأريد كل الانصاف له ، ولكني لا أتصور في هذا السبيل أن أتجنى على الحقيقة... على جيش مصر، وعلى ارادة شعب مصر.

وللرجل، على كل حال، فخر يكفيه من خطة " بدر" ومن قيادة تنفيذها.

وأعترف أن وصف " الكذاب " لم يغضبني موجهاً من مصدره ، ولم الجأ الى القضاء- كما اراد بعض الأصدقاء- لاني ببساطة لم أعتبر أنني أهنت .

ومهما يكن، فلقد أحسست بعرفان كبير حين بعث الرئيس انور السادات من سالزبورج يطلب التحقيق مع الذين أستغلوا ما نسب اليه خلا فاً لما قال ، وكان مطلبه في التحقيق " أنه لا يريد ان ينسب اليه ما لم يقله، وأنه لا يقبل أن يستغل في تسوية حسابات شخصية " .

و من جانبي، فليست لدي حسابات شخصية أريد تسويتها مع أحد، فأنا اعرف نفسي، وأظنني أعرف الاخرين ، واذا قررت ان أتكلم فلن يكون ما أقول به تصفية لحساب شخصي ، ، وانما سيكون حساب قيم أخلا قية ووطنية !

تظل لدي ملاحظتان :

- الاولى أن من بين مشاكلي أنني أكره الخوف لأني أؤمن بالحب دون أن أسمح لنفسي بالمتاجرة فيه!

ولقد أحببت جمال عبد الناصر، ولهذا لم أخف منه.

وأحببت- وما زلت- أنور السادات ، و لهذا لا أخاف منه !

وأتذكر أنني قلت له مرة :
- أن الذين يخافون لا يحبون، والذين يحبون لا يخا فون ... " .

- والملاحظة الثانية ، هي أنني كنت في لندن أثناء الاحتفال بصدور الكتاب عن " الطريق الى رمضان".

وبين برامج الاحتفال كان هناك مؤتمر صحفي في مبنى دار " كولينز " للنشر، حضره أكثر من مائة صحفي بريطاني وغير بريطاني من الذين يعملون و يتابعون الاخبار من لندن .

ودخلت الى المؤتمرمنتظراً ان يتوجه الي بعضهم أو أحدهم بسؤال عن الضجة التي ثارت هنا حول بعض الوقائع في كتابي .

ولقد دهشت.

وما زلت حتى الآن أتساءل :

- اليس غريبا أن واحدا منهم- حتى واحداً فقط - لم يوجه الي سؤالا كنت أنتظره؟

سؤال يقول :

- لقد ذكرت كذا وكذا، ولكنهم خالفوك فيما ذكرت . فما هوتعليقك؟ ".

لم أسمع هذا السؤال أو شيئا قريباً منه...

ولم أعط جواباً بالتزيد أو بالتطفل .

لقد وجدوها زوبعة في فنجان صغير للقهوة العربية المرة، فلم يشربوا، ولا أنا شربت!!

محمد حسنين هيكل

الفصل الأول

المفاجأة

في صبيحة يوم الاربعاء ٢٢ اغسطس (آب) ١٩٧٣ توجه ثمانية من الضباط المصريين وستة من الضباط السوريين واحدا تلو الآخر من نادي الضباط في الاسكندرية الى مقر القيادة البحرية في رأس التين الملكي . كان الضباط السوريون قد وصلوا من دمشق قبل يوم او يومين ، ودخلوا كل على انفراد حيث انضموا الى مجموعة الضباط المصريين وغيرهم من ضباط البلاد العربية الأخرى ، كذلك مجموعة الفنيين الروس الذين كانوا يستخدمون النادي ولا سيما في مثل هذا الوقت من السنة... ذروة موسم اجازات الصيف . وكانوا جميعا يرتدون الملابس المدنية ولم يكن هناك سبب يجعل منهم موضع اهتمام خاص .

وفي غرفة مقر القوات البحرية كان الفريق اول احمد اسماعيل وزير الحربية يجلس وسط جانب من مائدة طويلة تتوسط الغرفة . وكان يجلس امامه نظيره اللواء مصطفى طلاس وزير الدفاع السوري ، يحيط بهما على الجانبين كبار ضباط القوات المسلحة المصرية والقوات المسلحة السورية : رئيسا الاركان ، وقائدا العمليات ، ومديرا المخابرات ، وقائدا البحرية ، وقائدا القوات الجوية ، وقائدا الدفاع الجوي . على انه لما كان المنصبان الاخيران يشغلهما في سوريا ضابط واحد فقد اقتصر عدد الضباط السوريين في هذا الاجتماع على ستة منهم في مقابل سبعة من المصريين . وكان الشخص الرابع عشر الجالس الى المائدة ضابطا مصريا آخر هو اللواء بهي الدين نوفل رئيس اركان القيادة المصرية- السورية الاتحادية.

كانت الغاية من اجتماعهم ، هي وضع اللمسات الاخيرة لخطة الهجوم في وقت واحد على القوات الاسرائيلية التي تحتل ارض سيناء المصرية، والجولان السورية ، يتم خلال خريف تلك السنة. وكان التخطيط لمثل هذا الهجوم قد بدأ قبل ذلك بوقت طويل ... في صورة او في اخرى كنتيجة عاجلة لهزيمة ١٩٦٧ ، واتخذ بطبيعة الحال اشكالا متعددة طبقا للشريك او الشركاء الذين كان المفروض ان تتعامل مصر معهم ، ولم يأخذ شكله النهائى الا بعد ان تم انشاء المجلس الموحد للقوات المسلحة المصرية والسورية في ٣١ يناير (كانون الثاني) ١٩٧٣ . وقبل ذلك كانت ليبيا شريكا نشطا في التخطيط ، ولكن حين تبين ان للرئيس معمر القذافي رئيس ليبيا تصوراً مختلفا عن تصور مصر و سوريا بالنسبة الى الطريقة التي يدار بها الهجوم ، فان الرئيسين المصري والسوري قررا المضي في تجهيزاتهما من دونه.

وقد اتخذت اشد الاحتياطات لضمان عدم تسرب اية اشارة الى ما تحمله الرياح . فالغرفة التي اجتمع فيها الضباط الاربعة عشر فتشت اكثر من مرة للتأكد من عدم وجود اجهزة للتنصت فيها ، ولم يسمح بدخول اية اجهزة الكترونية اليها مهما يكن نوعها ، كذلك لم يسمح لاحد بان يدون اية ملاحظات باستثناء ضابط واحد هو اللواء عبد الغني الجمصي المدير المصري للعمليات الذي كان يسجل محضر الاجتماع بالقلم ، ثم يعد نسختين منه يسلم احداهما للفريق سعد الشاذلي رئيس الاركان المصري ليقدمها بدوره الى الرئيس انور السادات، والثانية الى اللواء يوسف شكور رئيس الأركان السوري ليقدمها الى الرئيس حافظ الأسد. ولم يكن مسموحا للضباط - بعد الاجتماع - ان يتصلوا بعضهم بالبعض سواء عن طريق الكتابة او التلفون . واي اتصال بينهم كان لا بد ان يتم عن طريق المحادثة الشخصية، والمحادثة الشخصية وحدها.

واستمر الاجتماع ستة أيام ، لأن عددا غير قليل من النقاط لم يكن قد تم الا تفاق عليه بعد ، على رغم ان الخطة في مجموعها كان اتفق عليها منذ شهر ابريل (نيسان) . وحين انفض الاجتماع اخيرا في اغسطس (آب) ، عادت غالبية الضباط السوريين الى اللاذقية بطريق البحر من الاسكندرية بينما عاد الباقون الى بلا دهم بالطائرة . ومع ذلك فانه على رغم محادثاتهم المكثفة، ظلت هناك نقطتان لم يتم الاتفاق عليهما حين انتهى الاجتماع ولم يكن هناك سبيل آخر سوق عرضها على الرئيسين لاتخاذ قرار في شأنهما . كانت النقطتان تتعلقان بالموعد المحدد للهجوم : اليوم والساعة ... يوم الهجوم وساعة الصفر.

ووضع المخططون فترتين بديلتين للهجوم ، احداهما بين ٧ سبتمبر و ١١ سبتمبر (ايلول) ، والثانية بين ٥ اكتوبر و ١٠ اكتوبر (تشرين الاول) . ولم تكن هناك حماسة كبيرة للفترة الاولى من الفترتين ، ومع ذلك فقد احتفظ بها كبديل يستخدم في حالة وجود اسباب سياسية قوية - لا يعرف بها المخططون- تجعل من الافضل القيام بالهجوم في وقت مبكر ، وان يكن شهر سبتمبر (ايلول) قد استبعد في النهاية، نتيجة لقرار خاص بموعد الهجوم كان المخططون قد اتفقوا عليه بالفعل ، وهو القرار الخاص ببدء العد التنازلي قبل الموعد المحدد بعشرين يوماً . وهكذا بدا انه لا بد للحرب أن تكون في اكتوبر (تشرين الاول) ، وان تركت مسؤولية تحديد موعدها للرئيسين . كذلك كان هناك اعتبار آخر خاص بتحديد الموعد ، وهو مطلب السوريين ان يكون لهم عد تنازلي خاص بهم مدته خمسة ايام لا تاحة الفرصة لهم لتفريغ معامل التكرير في حمص باعتبارها هدفا يكاد يكون من المحقق ان يتعرض لقنابل الاسرائيليين ، بمجرد ان يبدأ القتال . ولقد تعلم المصريون خلال حرب الاستنزاف أن الضرر الذي يمكن ان يلحق بمعامل التكرير الفارغة ، إذا ضربت بالقنابل ضئيل نسبيا ، في حين يمكن ان يبلغ الضرر مبلغ الكارثة اذا ضربت هذه المعامل وهي ملأى بالبترول . ولقي هذا المطلب السوري استجابة ، وان يكن ترتب عليه بعض سوء الفهم في ما بعد .

وبالنسبة الى ساعة بدء المعركة ، فان المصريين كانوا يفضلون ان تكون بعد الظهر، فذلك يعني ان قواتهم يمكن ان تبدأ عبور القناة والشمس وراءهم وامام عيون الجنود الاسرائيليين ، ومعناه ان يكون لديهم بضع ساعات للعبور ، في ضوء النهار ، تتبعها ٦ ساعات في ضوء القمر تتم خلالها عملية بناء الجسور على القناة ، تتبعها ٦ ساعات اخرى من الظلمة الحالكة تعبر القوات المدرعة خلالها القناة. أما السوريون فكانوا يريدون ان يبدأوا الهجوم مع اشعة الفجر الأولى ، لأنهم سيتوجهون في هجومهم غربا، ولم تكن رغبتهم اقل من رغبة المصريين في ان تكون الشمس وراءهم . وقدمت اقتراحات عدة للتوفيق بين الجانبين، منها – مثلاً – اقتراح من المصريين انهم مستعدون للموافقة على ان يبدأ السوريون هجومهم مع أشعة الفجر الأولى ، ثم يتبعهم المصريون بالهجوم بعد الظهر ، لكن السوريين اعترضوا على الاقتراح ، على أساس انه سيتركهم وحدهم في المعركة ساعات عدة ، فضلاً عن انه سيقضي على عنصر المفاجأة المزدوجة على الجبهتين ، وعندئذ اقترح المصريون أن يبدأوا هم بالهجوم بعد ظهر اليوم المحدد للمعركة ، على ان يتبعهم السوريين بالهجوم مع اول ضوء للفجر في اليوم التالي ، لكن السوريين اعترضوا وقالوا ان تنفيذ الاقتراح لا يفقد عنصر المفاجأة قيمته فحسب ، وإنما قد يؤثر عليه سياسياً أيضاً ، لأنه سيظهر السوريين في مظهر المتخلف وراء المصريين .

وبينما كانت المناقشات دائرة في الاسكندرية ، كان الرئيس السادات يقوم بجولة حملته الى المملكة العربية السعودية وقطر و سوريا . وكان توقفه في السعودية وقطر- الى حد كبير- جزءا من خطة الخداع الواسعة التي كانت قد بدأت بالفعل ، والتي كانت تهدف الى ان تترك الانطباع ان الرئيس - شأنه فى ذلك شأن بقية المصريين- يقوم برحلة عمل عادية . أما زياته لسوريا فإن هدفها كان أخطر بكثير . ففي خلال وجود الرئيس السادات فى دمشق عاد اللواء طلاس اليها وقدم الى الرئيسين السادات والاسد تقريراً عما تم الاتفاق عليه في الاسكندرية ، وكذلك عن النقطتين اللتين لم يتم بشأنهما اتفاق . وقد اتفق الرئيسان على استبعاد شهر سبتمبر (ايلول) موعداً للمعركة ، واتفقا بالتالي على أن يبدأ الهجوم في وقت ما خلال الفترة ما بين ٥ و ١٠ اكتوبر (تشرين الأول) على أن يفوض الرئيس السادات باعتباره قائداً اعلى للقيادة الموحدة في اختيار اليوم الموعود . وفي ليلة ٢٧ اغسطس (آب) طار الرئيس السادات عائداً إلى القاهرة ، وكان في استقباله في المطار الفريق أحمد اسماعيل الذي قدم الى الرئيس صورة أكثر تفصيلاً عن محادثات الأركان المشتركة . وقد وافق الرئيس على كل ما تم في هذه المحادثات في ما عدا طول فترة العد التنازلي ، فقد كان يرى أن الايام العشرين المطلوبة فترة طويلة ، وان خمسة عشر يوماً تكون أمراً طبيعياً وفيها الكفاية . وقد كان ... وتم الاتفاق على التعديل .

ثم أعقبت ذلك في الايام الثلاثة الأولى من شهر سبتمبر (ايلول) سلسلة من الاجتماعات حضرها أولئك الضباط المصريين الذين اشتركوا في محادثات الاركان في الاسكندرية ، مضافاً اليهم قائدا الجيشين اللذين ستوكل اليهما مهمة الهجوم عبر القناة . وفي هذه الاجتماعات استمع القائدان إلى شرح للموقف ، لكنهما لم يطلعا على التواريخ ، وتم التأكيد عليهما ضرورة كتمان كل شيء وعدم التحدث عن أي معلومات في هذا الشأن إلى أي مخلوق كان .

وقد حدث فى أواخر احد هذه الاجتماعات أن قدم اللواء فؤاد نصار مدير المخابرات الحربية تقييماً لرد الفعل المحتمل لدى العدو بالنسبة الى الهجوم . وكان التقييم الذي قدمه اللواء نصار مبنياً على ثلاثة مصادر : أولهما – دراسة مكثفة اعدت عقب المناورات الاسرائيلية التي اجريت في شهر مايو (ايار) ، والتي كان من الواضح انها تستهدف تحذير مصر ، في اعقاب الحشود المصرية في المنطقة في ذلك الوقت ، من أنه إذا حاولت قواتها عبور القناة فإنها ستتعرض للابادة . وثانيها – توزيع القوات الاسرائيلية المعروف في سيناء في تلك الفترة . وثالثها – المعلومات لدى جهاز المخابرات .

وبعدما أنتهى اللواء نصار من عرض تقييمه ، وجه اللواء سعد الشاذلي رئيس الاركان المصري سؤالاً اثار نقاشا حيا وطويلاً . فقد سأل المخابرات العسكرية عن تقديرها للموعد الذي يحتمل أن يتوصل فيه العدو الى كشف الاستعدادات المصرية . وكان الرد أن المتوقع بالنسبة الى العدو أن يعرف بهذه الاستعدادات قبل خمسة عشر يوما من بدء الهجوم . وفى كلمات اخرى ، فان العدو سيكون في موقف يمكنه من تحريك أحتياطه بمجرد ان يبدأ العد التنازلي . ومعنى ذلك ، ان الموجات الأولى من المشاة الذين سيعبرون القناة سيتركون وحدهم لمدة قد تصل الى ١٨ ساعة (حتى ضوء الفجر الأول من اليوم التالي للهجوم) قبل ان تستطيع القوات المدرعة أن تقدم لهم العون الفعال .

وهنا واجهت القيادة المصرية مشكلة بدت في باديء الامر مستعصية على الحل . ذلك أنه ، اذا كان عنصر المفاجاة التامة مستحيلاً كما لاح عندئذ ، فإن ذلك يعني ان القوات الأولى التي ستعبر القناة ستواجه على وجه التأكيد القوة الكاملة للمدرعات الاسرائيلية . صحيح أن من الممكن اعداد شيء للاسراع في عمليات إقامة الجسور على القناة بحيث تعبر المدرعات المصرية قبل الموعد المحدد لعبورها ، لكن ذلك ليس حلاً حقيقياً ، لأن الجسور يمكن أن تضرب بالقنابل ، كما انه في أية حال لن يحول دون أن تترك قوات المشاة وحدها لساعات عدة ، وأن تواجه خطر الابادة ، وهو خطر يمكن أن يكون مؤكداً ، انقضت أيام عدة قبل أن يتم العثور على جواب عن السؤال . وكان الحل أن يزود الـ ٨ آلاف جندي الأول من جنود الصاعقةوجنود فرق المشاة الذين سيتبعونهم مباشرة بقذائف مضادة للدبابات وقذائف مضادة للطائرات على نطاق يفوق بمراحل كثيرة كل ما كان متصوراً من قبل . ومن أجل هذا الغرض فإن الجيش الأول جرد تماماً تقريباً مما لديه من قذائف " المالوتكا " و " الستريلا " وسلمت كلها إلى قوات الهجوم . وكانت هذه الاسلحة هي التي مكنت قوات المشاة من الصمود . وقد اعترف الجنرال ديان في ما بعد أن ما فاجأ القوات الاسرائيلية لم يكن حداثة هذه الاسلحة ، بقدر كثافتها العددية الهائلة المتوافرة لدى المصريين في بدء المعركة . وقد كانت تلك المفاجأة من أهم ملامح حرب اكتوبر (تشرين الأول) في أيامها الأولى .

وفي هذا الاجتماع قدم كذلك اقتراح ، انه إذا امكن توسيع مدى خطة الخداع فقد يتيسر خفض الفترة التي يمكن اسرائيل ان تعترف خلالها بالاستعدادات المصرية من خمسة عشر يوماً الى أربعة أو خمسة ايام . وكان الفريق أحمد اسماعيل يرى أن مثل هذه الفترة كافية تماماً لتحقيق النجاح ، بالنظر الى فترة الخمسة أيام الى السبعة ايام التي تقدر القيادة المصرية انها ضرورية للتعبئة الكاملة في اسرائيل ، وان يكن يفضل ان تقصر الفترة التي يمكن العدو فيها أن يعرف ، إلى ثلاثة أيام مثلاً . يضاف الى ذلك ان التعبئة في اسرائيل قد تتطلب وقتاً اطول ، نظراً الى ان اعلانها سيكون في فترة الاعياد والاجازات التي سيكون آخرها عيد يوم الغفران (يوم كيبور) فضلاً عن الاستعدادات للانتخابات العامة التي كان من المقرر اجراؤها يوم ٣١ اكتوبر (تشرين الأول) .

وكجزء من خطة الخداع ، تقرر أن يتم التوزيع النهائي للقوات تحت ستار الاستعدادات للمناورات السنوية التي تجري في الخريف . وهذه المناورات التي أطلق عليها الاسم الرمزي " تحرير ٢٣ " قد وضعت خططها المستقلة منذ مدة طويلة . وكان لابد للمخابرات الاسرائيلية أن تكون على علم بها خصوصاً أن الاشارات الخاصة بها كانت ملء الجو . وتبعاً لذلك ، فإنه حين انتقلت القيادة الى نقطة متقدمة على طريق القاهرة – السويس عرفت فيما بعد باسم المركز رقم ١٠ لتتخذ منه مقراً لعمليات المعركة ، شهد المركز عملية تغطية جدرانه بخرائط مناورات " تحرير ٢٣ " . وكان من السهل نسبياً أن تتحول القوات المشتركة في مناورات " تحرير ٢٣ " لتتخذ مراكزها استعداداً لشن حملة " بدر " ، وهو الاسم الرمزي الذي اطلق على حملة الهجوم المصري – السوري المشترك .

على ان خطة الخداع شملت في طبيعة الحال ميداناً اوسع من هذا بكثير . وكما فعل مونتجومري قبل معركة العلمين ، فإن الدراسات التي أجريت في شأن خطة الدفاع بدأت مع خطة العمليات في وقت واحد

، واستمرت متوازية معها ، وشملت كل الميادين : العسكرية والدبلوماسية والاعلامية . كانت القوات تتحرك الى جبهة القناة في اثناء الليل ، بينما كان بعض عناصرها يسحب في اثناء النهار بطريقة ملفتة للانتباه (لتعود الى مراكزها في اثناء الليل بطبيعة الحال) . وعلى الضفة الغربية للقناة أقيم سد رملي عال أنشأوه في نهاية العام ١٩٧٢ ، وبلغت نفقاته ٣٠ مليون جنيه . وكان الغرض البادي منه هو توفير المزيد من الحماية ضد أي هجوم اسرائيلي ، في حين انه في الحقيقة ساعد الى حد كبير على اخفاء حشود المدفعية والدبابات . وكان مندوبو مصر وسوريا في مؤتمرات عدم الانحياز وفي الأمم المتحدة وفي غيرها من الاجتماعات يتحدثون باسلوب السلام (ولا بد هنا من القول انهم لم يكونوا يعرفون الغرض من التوجيه الصادر اليهم بالتحدث بهذا الاسلوب) ، بينما كانت الصحف والاذاعة قد وجهت الى ابراز اهتمام مصر وسوريا بالبحث عن حل سلمي لنزاع الشرق الأوسط ، واظهار عدم الرضا عن الخطب والعمليات العسكرية التي يقوم بها الفدائيون الفلسطينيون .

ومع ذلك ، وعلى ما أظهرته خطط الخداع من نجاح ، فإن الموقف كان مديناً بالكثير الى ذلك الحليف المتقلب : جنرال " حسن الحظ " لقد كان من المغالاة في ذلك الوقت أن يأمل أحد في أن يلعب الحظ هذا الدور فيجعل الرأي العام الاسرائيلي في بداية اكتوبر (تشرين الأول) منهمكاً تمام الانهماك في مواجهة القرار الذي اتخذته الحكومة النمسوية بإغلاق معسكر اللاجئين في شوناو ، تضاف الى ذلك منحة أخرى هي أن الجنرال ياريف مدير المخابرات الاسرائيلية ، وهو ضابط معروف بدهائه الشديد ، كان قد اقصي عن رئاسة المخابرات العسكرية الاسرائيلية قبل سنة ، وابدل بالجنرال زئيرا الذي كان يعتقد اعتقاداً جازماً أن المصريين لن يستطيعوا في أي ظرف من الظروف أن يشنوا هجوماً ، ومن حسن الحظ أيضاً أن الاسرائيليين توصلوا الى استنتاجات خاطئة بالنسبة الى المعركة الجوية المشؤومة التي حدثت فوق سوريا يوم ١٥ سبتمبر(ايلول) وأسقطوا فيها ١٢ طائرة سورية . لقد أدت هذه المعركة الى ازدياد كبير في التوتر ، وثارت المخاوف من أن يتعرض السوريون لاغراء رد الضربة فينهكون أنفسهم قبل أن تبدأ المعركة الحقيقية . وقد حشدوا بالفعل بعض القوات في جبهتهم ، وحركت مصر بعض قواتها الى الخطوط الامامية ، لكن ذلك كله كان كجزء من مناورات " تحرير ٢٣ " بل أن الأمر صدر في مصر بتعبئة جزئية حتى يتسنى لقوات الاحتياطي أن تشترك في مناورات " تحرير ٢٣ " التي كان مقرراً أن تستمر من أول أكتوبر الى ٧ اكتوبر (تشرين الأول) . ولم يكن هناك شك في أن الاسرائيليين التقطوا كل الاشارات المتعلقة بالنتائج المترتبة على المعركة الجوية التي دارت فوق سوريا ، ولا شك كذلك في أن هذه الاشارات لعبت دوراً في تحويل أنظارهم عن الخط الحقيقي . اضافة الى ذلك كله ، فقد وقع بالصدفة غير المدبرة ، حادث صغير لكنه مهم ، حين وقعت إحدى الشركات الامريكية في ذلك الوقت نفسه اتفاقية لانشاء خط أنابيب للبترول ينتهي عند الأدبية على خليج السويس ، ويدخل على وجه اليقين في نطاق دائرة العمليات العسكرية اذا ما اشتعل القتال في جبهة القناة . لقد اتخذ توقيع هذه الاتفاقية كقرينة أخرى على ان مصر تتوقع فترة سلام طويلة .

وقد أدعى الامريكيون في ما بعد انهم عرفوا بخطط حملة " بدر " في شهر مايو (ايار) . واذا كان هذا صحيحاً فإنه يكون نوعاً من التفاخر السخيف ، لأن المفاجاة في هذه الخطة لم تكن أقل بالنسبة لهم عنها بالنسبة الى غيرهم . ويقيناً أنهم قاموا في الشهور الأخيرة بعمليات تجسس متزايدة ومكثفة فوق مصر مركزين هذه العمليات على الجوانب العسكرية . وبدا قبل أول سبتمبر (ايلول) ان مستوى هذه العمليات أصبح غير محتمل . وهم لم يكونوا يستخدمون ملحقيهم العسكريين انفسهم في هذه العمليات ، لأن العلاقات الدبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة كانت قد قطعت في العام ١٩٦٧ ولم تستأنف ، انما كانوا يستخدمون الملحقين العسكريين لسفارات عدد من الدول الأخرى ، خصوصاً الملحق العسكري لاحدى الدول الآسيوية . وقد رتبت المخابرات المصرية لهذا الملحق قبل فترة طويلة حادثاً مؤسفاً ، اذ تعرضت سيارته لتصادم نشب على أثره اشتباك ضرب خلاله الملحق ضرباً مبرحاً ظل يعالج منه في المستشفى بضعة أشهر ، وبعد ذلك اعلن ان رئيس بعثة المصالح الأمريكية في السفارة الاسبانية شخص غير مرغوب فيه لأن نشاطه بدأ يزداد في فترة الصيف .

●●●

كان التاريخ أوائل شهر سبتمبر (ايلول) حين دخلت للمرة الأولى دائرة من يعرفون سر المعركة المقبلة . ففي بداية الأ سبوع الثاني من شهر سبتمبر (ايلول) طلب مني الرئيس السادات ان اتوجه لمقابلته في استراحته فى برج العرب قرب الاسكندرية . وحين وصلت الى هناك كان الرئيس ينزل درجات السلم متجها الى سيارة مرسيدس بنية اللون تقف امام مدخل الا ستراحة . وقال وهو يدخل السيارة ليجلس في مقعد السائق : " تعال اجلس بحانبي " . وقد دهشت لذلك ، لأن الرئيس قلما يقود سيارة بنفسه. وعندما حاول الحرس ان يجلسوا في المقعد الخلفي أوقفهم الرئيس ، وطلب منهم ان يتبعوه في سيارات أخرى .

وفي العادة كان الرئيس يتوجه من استراحته الى كابينة على شاطىء البحر تبعد نحو خمسة كيلومترات . لكني لاحظت هذه المرة انه يقود السيارة في اتجاه مضاد ، عبر الطريق الصحراوي المؤدي الى واحة كينج مريوط ، حيث استراحة اخرى يحبها الرئيس . وبمجرد ان انطلقت بنا السيارة بدأ الرئيس يتحدث عن الحرب. وكنا نجتاز بعض الحقول التي زرعت حديثا ضمن برنامج استصلاح الاراضى ، حين أشار الرئيس اليها وقال : " انظر الى هذه الخضرة كلها .. الى هذه الحياة الجديدة النامية .. أظن اننى سأقيم هنا بعد ان ننهى معركتنا ، سأقيم في مزرعة صغيرة فيها بعض الجياد ، واقضي بقية عمري متنقلاً بين الصحراء والبحر...

وعلى رغم اني- ككثيرين غيري- كنت في ذلك الوقت اشعر بأن ثمة شيئاً في الجو، فلم تكن لدي على وجه التحديد فكرة عما هو متوقع حدوثه بالضبط او عن موعد حدوثه ، ولذا رأيتني اقول للرئيس أن عليه في هذه الحال ان ينتظر طويلا حتى يحين موعد اعتزاله .

وبادرني بقوله : " أتظن ذلك حقيقة ؟ . أعتقد أن هناك كثيرين من الناس يظنون اننا لن نقاتل ابدا " .

وقلت : " أظن ان القتال قدرنا " .

فقال : " لكن هناك كثيرين في العالم العربي لا يتفقون معك ، وهم قد فقدوا الأمل فى اننا سنقاتل ابداً ". واضاف : " والله اننا سنفاجئهم " . ثم نظر الى وقال : " وأظن انك نفسك ستفاجأ ايضا " .

قلت: " لماذا ؟ " .

قال الرئيس : " سأفضى إليك بسر. هل تملك اعصابا قوية ؟ ان معركتنا ستبدأ فى موعد لا يتجاوز اسابيع تعد على اصابع اليد الواحدة من الآن " .

قلت : سيادة الرئيس .. لماذا تقول لي ذلك ؟ انى لن استطيع ان انام بعد الان ... "

قال الرئيس مبتسما : " وانا لا أريدك أن تنام " .

وكنا عندئذ وصلنا الى الاستراحة في كينج مريوط . وجلسنا في الشرفة التي زينت ببعض الزهور. وبدا ساعتها ان المشهد غير مناسب للحديث عن حرب وشيكة . وقلت للرئيس شاكيا : " اني اشعر بعبء ثقيل على كتفي . هل صحيح ان المعركة ستبدأ خلال اسابيع قليلة على هذا النحو ؟ ".

ورد الرئيس بانها قد تبدأ خلال شهر. وهنا بدأ يسرد صورة كاملة لتصوره الكامل للموقف . وكان شرحه منطقيا مترابطا وفياضا بالحيوية . وظل على امتداد ساعة كاملة يتكلم عن خطته والتصور الذي كان وراءها ، والمشاكل التى لا تزال تنتظر الحل ...

قال الرئيس : " ان هذه فرصتنا الأخيرة ، واذا لم ننتهزها ، فاننا سنجد انفسنا في النهاية وقد فاتنا القطار. ان مصر ، من ناحية ، لن تتلقى مزيدا من السلاح أكثر مما تلقته ، وهي الآن في قمة قدرتها العسكرية . ومن ناحية اخرى .. من الناحية الدولية .. فان محصر تلقى الآن كل التأييد الذي لم تكن تحلم به ابدا من جانب الشعوب العربية ودول عدم الانحياز، وفي الأمم المتحدة وفي كل مكان . وقد بدأ الناس يقولون : ما الفائدة من قرارات التأييد التي طلبتموها منا وقدمناها اليكم ؟ ليس هناك ما يحدث على الاطلاق . فما الذي تتنظرونه؟... ان الناس سرعان ما سيفقدون اهتمامهم ، ثم ان هناك الموقف الاقتصادي .. ومن المستحيل أن نتحمل حالة " اللا سلم واللا حرب " طويلاً . واذا لم نحصل على جرعة مالية كبيرة في صورة معونة ، فان العام ١٩٧٤ سيأتي بأزمة . ولا يمكن أن تأتي مثل هذه الجرعة وعلى النطاق المطلوب، الا من بعض الدول العربية . لكن العرب لن يقدوا الى مصر قرشا آخر، الا اذا كان هناك تحرك ما . اما في الجبهة الداخلية ، فان الشعب بدأ يفقد صبره " .

و تحدثنا لفترة عن مشاكل مصر الداخلية ، وفي اثناء هذا الحديث اتخذ الرئيس قرارين ، كلاهما يستهدفان ايجاد جو من الصفاء . الأول : خاص باسقاط التهم القائمة في المحاكم ضد الطلبة الذين اشتركوا في مظاهرات العام ١٩٧٢. والثاني : خاص باعادة نحو ٧٠ الى ٨٠ من الكتاب و الصحافيين الذين فصلوا من عضوية الاتحاد الاشتراكي ، وكانوا مهددين بفقدان مناصبهم في أوائل ذلك العام .

وبعد ذلك انتقل الحديث الى عدد من النقاط المهمة التي لم يكن الرئيس قد اتخذ قرارا في شأنها بعد. اولها : البحث عن ذريعة تكون مبررا للعملية العسكرية . وكان من بين الافكار التي طرحتها بعض الجهات المسؤولة على الرئيس ، أن تقوم احدى الغواصات المصرية باطلاق نيرانها على ناقلة اسرائيلية، لكن الرئيس رأى انها فكرة غير صائبة ، لأن الاسرائيليين سيردون يقينا على ذلك بعنف، ولا يمكن احدا ان يتنبأ بما سيكون لذلك من اثر في الموقف الدولي .

وقد ابدى الرئيس قلقه بشأن خدمات الاعلام والاتصالات مع بقية انحاء العالم . وكان يدرك كل الادراك مدى الميزات الضخمة التي تتمتع بها اسرائيل بالنسبة الى اسماع وجهة نظرها في الخارج . وا عربت له عن اعتقادي انه اذا كان لدينا شيء نقوله ثابت ومحدد ومعقول ، فان العالم سيصغي اليه ويتقبله، حتى ولو كان راديو القاهرة مصدره الوحيد .

وكان من بين المسائل الأخرى الكبرى التي لم يتخذ في شأنها قرار بعد مسألة : الجهات التي يجب ان نخبرها.. وما يمكن أن نخبرها به.. ومتى نخبرها به . ما الذي يجب ان يقال للسوفييت؟.. ولزعماء عدم الانحياز ولا سيما تيتو والسيدة غاندي؟... ولاوروبا الغربية ، التي تعني اساسا هيث وبرانت وبومبيدو؟... ولمؤيدي مصر في افريقيا وآسيا ؟ صحيح ان كلاً منهم سيوضع في الصورة تماما بمجرد ان تطلق الطلقة الأولى ، ولكن هل من الضروري ان يبلغ اي منهم بالأمر قبل اطلاق الطلقة الأولى ؟

كان اهم قرار هو القرار الخاص بما يجب اتخاذه بالنسبة الى الاتحاد السوفييتي . وقد تباحثنا في ذلك كثيرا، وانتهى الرئيس الى ضرورة ابلاغهم على نحو ما بالامر مقدما ، واعدت بعد ذلك صيغة رسالة الى بريجنيف، كما اعدت في ما بعد صيغ مطابقة لكل من تيتو والسيدة غاندي ، وثلاثة مثلها لهيث وبرانت وبومبيدو، على ان ترسل كلها بعد بدء العمليات العسكرية . اما بالنسبة الى الامم المتحدة ، فقد كان المتوقع ان يكون السناريو على الوجه التالي : تصل انباء القتال الى نيويورك . يدعى مجلس

الأمن الى الاجتماع . تعرض مصر قضيتها . وعليه اصدر الرئيس تعليماته الى مكتب السيد حافظ اسماعيل مستشار الرئيس لشؤون الامن القومي بأن يعد مذكرات لتقديمها الى مجلس الامن والجمعية العامة .

على ان أيا من هذه الرسائل لم تسلم في النهاية الى اصحابها . فلم يتذكرها احد وسط زحمة الأحداث وحماستها . وبدا من الاسهل كثيرا استدعاء السفراء في القاهرة وابلاغهم بما كان من الواجب وقتها ابلاغهم به .

وثمة أمر واحد أكد الرئيس عليه بصفة خاصة في مجرى حديثنا . ذلك هو غضبه مما وصفه بـ "العجرفة غير المحتملة" من جانب الاسرائيليين . وكان في ذلك الصباح ، قرأ في الصحف تصريحات للجنرال ديان عن انشاء ميناء ياميت على الاراضي المصرية عند حدود قطاع غزة المحتل . وقد كان من بين هذه التصريحات قول ديان : " انظر الى ذلك ... ". وقال الرئيس : " لو كان علينا ان نحارب لمجرد هذه الجملة وما تعنيه من حماقة القوة ، لوجب علينا أن نحارب ".

ولقد كان هناك قرار حكيم جدا اتخذه الرئيس في ذلك الوقت، وهو الا يذهب الى مقر قيادة العمليات في القيادة العسكرية، الا اذا طلب اليه ذلك بصورة محددة . وقال ان القائد الاعلى لقوات البلاد المسلحة مدني ، وهو اذ يذكر مآسي العام ١٩٦٧ فانه بدا مصمما على أن يتولى العسكريون المحترفون ادارة عملياتهم بأنفسهم . لقد كان وجود المشير عبد الحكيم عامر في منصب القائد العام للقوات المسلحة في العام ١٩٦٧ راجعا لاعتبارات سياسية اكثر منه لاعتبارات عسكرية. ولم يكن مفروضا ولا كان متصورا له ان يقود عمليات عسكرية. ذلك ان دراسته العسكرية توقفت عندما وصل الى درجة الرائد. وفي هذه المرة، فان الرئيس سيكون مع القيادة في المراحل الأولى من المعركة حتى يظهر بوضوح ان المسؤولية السياسية مسؤوليته ، ثم يتركهم بعد ذلك ولا يعود اليهم ، الا اذا كانت قرارات حاسمة لا بد من اتخاذها .

كذلك فان الرئيس اتجه الى تشكيل عدد من اللجان المتخصصة . وقد تصور ان تكون هناك لجنة للشؤون الخارجية يرئسها الدكتور محمود فوزي مهمتها الاتصال بالحكومات الاجنبية، وبها قسم خاص للاتصال بالصحافة الاجنبية . وتصور ان تكون هناك لجنة برئاسة حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية وممدوح سالم وزير الداخلية لشؤون الدفاع المدني والاغاثة ، وتصور لجنة اخرى برئاسة سيد مرعي مساعد رئيس الجمهورية مهمتها ضمان سريان الحياة في البلاد بصورة طبيعية قدر الطاقة، وتصور لجنة غيرها برئاسة محمود رياض الأمين العام لجامعة الدول العربية مهمتها تعبئة الرأي العام العربي، وخاصة بالنسبة الى اية اجراءات محتملة ضد المصالح الامريكية .

وكانت الفكرة ان تعمل هذه اللجان من قصر الطاهرة الذي تقرر ان يكون مقر القيادة السياسية للرئيس. وهذا القصر بناه محمد طاهر باشا احد ابناء عمومة الملك فاروق ، وقدمه الملك فاروق هدية زفاف الى الملكة فريدة زوجته الأولى . فلما قامت الثورة اصبح القصر قصرا للضيافة ، وعاش فيه عبد الناصر في صيف سنة ١٩٥٦، حين اعلن تأميم قناة السويس حتى تنتهى الاصلاحات التي كانت تجري في منزله في منشية البكري . وقد ادخل فيه الكثير من الأجهزة التكنولوجية حين قرر الرئيس السادات أن يتخذ منه مقراً لقيادته ، منها ثلاثة أجهزة للاتصال المباشر بالقيادة في الميدان ، والاتصال المباشر بالرئيس الأسد في دمشق ، وبالرئيس القذافي في طرابلس . ومع ذلك ، فلم يستخدم أي جهاز من هذه الاجهزة خلال المعركة ، كما لم تشكل في الواقع أي لجنة من اللجان التي سبق ذكرها لكي تؤدي مهمتها المقررة لها ، لأسباب منها أنه كان على بعض اعضائها البارزين أن يؤدوا مهمات ثقيلة عاجلة في مواقع أخرى ومها ان الرئيس رأى في النهاية أن وجود عدد كبير من اللجان سيكون عبئاً على اكتافه أكثر منه عوناً .

وفي يوم اول اكتوبر (تشرين الأول) وصل الى القاهرة الرائد عبد السلام جلود رئيس وزراء ليبيا. استقبله الرئيس في الصباح، لكنه لم يذكر له أي تفاصيل محددة عن موعد العملية المقبلة، وان كان طلب منه الاسراع فى ارسال الأسلحة التي وعدت ليبيا بارسالها، ومنها القذائف المضادة للمدرعات والقذائف المضادة للطائرات. ولتأكيد الحاجة الملحة الى الاسراع في ارسالها اتصل الرئيس مرة اخرى بجلود، وهو يستعد لركوب طائرته في السا عة الثالثة بعد الظهر عائدا الى طرابلس، وقال له : " ان ما تحدثنا في شأنه في الصباح يجب ان يصل بأسرع وقت ممكن . انها مسألة ساعات . فلا تتأخر" .

وكنت مع الرئيس حين اتصل بجلود تلفونيا . واجرى الرئيس الاتصال في الشرفة امام غرفة نومه في منزله في الجيزة . كان الرئيس صائما، يجلس على مقعد مريح ، ويرتدي البيجاما وفوقها " روب دي شامبر" بني اللون . وقال لي الرئيس بعد ان فرغ من محادثته : " لا اريد ان اغالي بما لدي .. ولكن امامنا الآن نقطة لم نتخذ فيها قرارا بعد وهي : السوفييت ". قلت اني ارى انه لا بد من ابلاغ السوفييت بطريقة او باخرى ، حتى ولو بأسلوب غامض . وكان الرئيس بدوره مقتنعا بأن عليه ان يخبرهم مقدما ، ولكن من دون ذكر اي تفاصيل عن الموعد . وكان تبريره لذلك انه وان كان واثقا من انهم لن يبلغوا الأميركيين اية معلومات في هذا الصدد، فانه بمجرد ان يبدأ القتال ويتضح انهم كانوا يعلمون بكل شيء عنه، سيوضعون في مركز حرج امام الأميركيين ، وليست هناك حاجة الى احراجهم . ومع ذلك فانهم اذا كانوا- لسبب من الاسباب- لا يريدون للقتال ان ينشب في ذلك الوقت فقد يعطون الاميركيين اشارة بذلك. ومن ناحية اخرى فانهم سيظنون انهم يخدمون مصر اذا اتصلوا بالاميركيين وطلبوا اليهم ان يضغطوا على الاسرائيليين " لتحسين سلوكهم ". ولم يكن الأمر واضحا على الاطلاق بالنسبة الى احد فيما يختص بالمدى الذي وصل اليه الوفاق بين القوتين العظميين ، ولا لاسلوب المتبع في شأنه .

وهكذا قرر الرئيس ان يستقبل السفير السوفييتى فلاديمير فينوجرادوف، وان يبلغه تحذيرا عاما ان خرق وقف اطلاق النار أصبح امرا محتملاً والا يقدم اليه بأي صورة من الصور أي معلومات محددة عن التواريخ . ورفع سماعة التلفون وطلب من سكرتيره أن يتصل بالسفير السوفييتي ويبلغه ان الرئيس ينتظره في نحو الساعة السابعة. وحين جاء السفير قال له الرئيس انه لم يعد في استطاعتنا ان نتحمل العجرفة الاسرائيلية اكثر من ذلك ، واشار الى تصريح ديان في شأن ميناء ياميت . ثم قال : " وربما نجد انفسنا مضطرين الى التحرك بسرعة " . وقال السفير السوفييتي ما يقوله السفراء السوفييت عادة : "سأبلغ موسكو". فقال الرئيس : " ارجو ان تبلغ ذلك لبريجنيف فقط ". فرد فينوجرادوف : اظن اني اعرف- ومن دون حاجة الى انتظار رد بريجنيف - ما سيقوله . انه سيقول ان القرار قراركم ، واننا- كأصدقاء- سنبذل كل ما في وسعنا لمساعدتكم ". وقال الرئيس : " قل لبريجنيف ان الايام المقبلة ستكون اختبارا حقيقيا وعمليا للمعاهدة السوفييتية- المصرية". وعند هذه النقطة بدأ فينوجرادوف يسجل مذكرات .

وبعد ان انتهى الرئيس من لقاء السفير السوفييتي ثارت مسألة ما اذا كانت هناك ضرورة لابلاغ الدكتور محمد حسن الزيات وزير الخارجية الذي كان في ذلك الوقت موجودا في نيويورك لحضور جلسات الجمعية العامة للأمم المتحدة . (وفي واقع الامر ، فان اسماعيل فهمي وزير السياحة والمفروض أن يقوم بأعمال وزير الخارجية في غياب الدكتور الزيات في تلك الاثناء كان في طريقه الى فيينا يحمل رسالة الى المستشار كرايسكي الذي كان يعرف معرفة شخصية ، منذ كان سفيرا لمصر في النمسا. وهكذا، فانه حين نشبت الحرب لم تكن لجنة الشؤون الخارجية المقترحة قد قامت بالفعل). وتقرر بعد مناقشة، عدم ارسال أية رسائل اليه. وقد قدم اقتراح بايفاد رسول اليه حتى لا يفاجأ تماما عندما يبدأ القتال، ولكن الاقتراح رفض بعدما تلقى الرئيس برقية من الزيات يوم ٣ اكتوبر (تشرين الاول) يقول فيها ان كيسينجر طلب أن يجتمع معه يوم الجمعة ٥ اكتوبر (تشرين الاول) لمناقشته حول الموقف بصفة عامة. وكان الرأي أنه اذا طار رسول الى الزيات يوم الاربعاء بحيث يصل الى نيويورك يوم

الخميس، فان ذلك يعني أن الزيات سيذهب الى الاجتماع مع كيسينجر وهو على علم الى حد ما بما يوشك ان يحدث ، وفي ذلك ما يسبب لى ارهاقا شديدا . وهكذا تقرر ان يبقى الدكتور الزيات في الظلام .. بل حتى ان يستخدم كمصدر بريء للخداع . ومن الطبيعي ان الزيات لم يكن في ما بعد سعيدا بما جرى .

وفي ذلك اليوم نفسه دعا الرئيس السادات مجلس الامن القومي- وهوهيئة سياسية تضم الى جانب الرئيس ، نائبي الرئيس ، واثنين من مساعديه ، ونواب رئيس الوزراء ، ووزير الحربية ، ومدير المخابرات العامة ، كما يضم في العادة مدير المخابرات الحربية – الى اجتماع عقد في غرفة الطعام في منزل الرئيس في الجيزة في الثامنة والنصف مساء (كان ذلك في شهر رمضان حيث يستمر الصيام إلى المغرب) وأوضح فيه الرئيس انه قد يصبح من الضروري في المستقبل القريب أن نخرق وقف اطلاق النار . وسئل الرئيس عن نوع المعركة التي يتوقع أن تنشب كنتيجة لذلك فأجاب أنه يتوقع ان تكون معركة محدودة . وحاول بعض الحاضرين أن يفهموا منه بتحديد أكثر ما يعنيه بالمعركة المحدودة . وعدئذ انبرى الدكتور محمود فوزي نائب الرئيس ، فضرب مثلاً على ذلك بالفارس الياباني " الساموراي " الذي كان يحمل دائماً سيفين أحدهما طويل والآخر قصير ، وقال " أظن اننا سنستخدم سيفنا القصير " .

وسئل الرئيس ايضا عما اذا كان يعتقد ان البترول سيستخدم كسلاح في المعركة . وكان رده انه لا يظن ان في استطاعته ان يتقدم سلفا بأية مطالب من الدول العربية المنتجة للبترول ، وان اي مطلب من جانب مصر سيلقى الاستجابة بمجرد ان يبدأ القتال . كذلك ، تحدث الرئيس قليلاً عن الوفاق الدولي ، مشيرا الى ما يبدومن أن القوتين العظميين قد توصلتا الى اتفاق في شأن كل المسائل بما في ذلك ازمة الشرق الأوسط ، وهو ما يجعل هذه الفرصة فرصة اخيرة للقيام بعمل من جانبنا .

وفي اليوم التالي كان الدور للعسكريين . فقد دعا الرئيس المجلس الاعلى للقوات المسلحة (مجلس الحرب) الى الاجتماع . وهذا المجلس يضم وزير الحربية ، ورئيس الأركان ، ومدير العمليات ، وقائد السلاح الجوي ، وقائد البحرية ، ورؤساء كل ادارات الخدمات . وكان بعض الحاضرين بطبيعة الحال يعرفون كل- او تقريبا كل- خطط " بدر " أما الباقون فكانوا يعرفون ان العد التنازلي قد بدأ ، وان كانوا لا يعرفون كيف او متى سيبدأ القتال .

وفي هذا الاجتماع قرأ الرئيس على كبار الضباط توجيهاته بالنسبة الى المعركة . وكان الرئيس قبل الاجتماع مباشرة قد استدعى احد سكرتيريه ، وطلب اليه ان يأتي بآلة كاتبة وأملى عليه توجيهاته ، وكان السكرتير كمن لا يصدق ما سمعته اذناه . وقد شكر الرئيس سكرتيره بعدما انتهى من املائه ومنحه علاوة .

وقد تضمنت التوجيهات عرضا للجهود التي بذلتها مصر للوصول الى حل سلمي لمشكلة الشرق الاوسط ، واعاد شرح الكثير مما شرحه لي في استراحة كينج مريوط ، وقال انه اذا كان لا مفر من العودة الى استخدام السلاح ، فلا بد ان يحدث ذلك الان لا في ما بعد . فاستراتيجية اسرائيل تستهدف ان تجعل العالم كله- بما فيه نحن انفسنا- يعتقد ان من العبث بالنسبة الى العرب ان يحاولوا تحديها، ولا بد لهم من ان يقبلوا أي شروط للتسوية تريد ان تفرضها عليهم . ولذلك فلا مفر من أن نثبت خطأ هذه الاستراتيجية . وقال الرئيس : " اني اعتقد انه اذا امكن ان نتحدى بنجاح نظرية العدو القائمة على اساس تفوق قواته الدائم ، فإن الآثار القريبة المدى والبعيدة المدى الي ستترتب على ذلك سوف لا تعد ولا تحصى . انها – على المدى القصير – ستجعل في الامكان الوصول الى حل مشرف لمشكلة الشرق الأوسط ، كما انها ستؤدي – على المدى الطويل – الى تعديلات متصاعدة في السيكولوجية العدوانية للصهيونية " .

وفي هذا الاجتماع الثاني سأل الرئيس عما إذا كانت هناك أية اشارة إلى أن في اسرائيل أي ادراك لتحركاتنا ، وتلقى على سؤاله ردين مختلفين . الأول يقول انه حيث ان الجنرال جونين القائد الاسرائيلي للجبهة الجنوبية قد زار في صباح ذلك اليوم مواقع متقدمة في سيناء ، فقد تحمل هذه الزيارة معنى ادراك تلك التحركات . أما التقرير الثاني ، فقد اوضح أنه ليس هناك أي تغيير في توزيع قوات العدو ، وهو ما يحمل معنى عدم الادراك .

واعرب الفريق الشاذلي رئيس الاركان المصري عن رأيه في اننا نسبق الاسرائيليين ، وقال انهم حتى لو أدركوا في تلك الليلة نيتنا الهجوم ، فإن تعبئتهم لن تتم قبل ان يبدأ الهجوم . ثم قدم تحليلاً مفصلاً عن القوات التي يمكن اسرائيل تعبئتها خلال اليومين الأولين ، رأى فيه الرئيس السادات ما يدخل الطمأنينة الى القلب .

واذكر انني سألت الرئيس مرة عما إذا كان يعتقد ان في امكاننا أن نفاجيء العدو ، فرد بقوله " استراتيجياً لا .. بسبب الجبهة الواسعة جداً التي سنهاجم فيها . أما تكتيكياً .. فنعم نستطيع ذلك " . والحقيقة اننا استطعنا أن نفاجئهم استراتيجياً وتكتيكياً .

ومما يمكن استخلاصه من " لجنة اجرانات " التي شكلتها الحكومة الاسرائيلية للتحقيق في الاحداث التي أدت الى حرب اكتوبر (تشرين الأول) ، فليس من اشارة الى أنه كانت لدى الاسرائيليين أية فكرة عن استعداداتنا طوال الفترة التي تمت فيها . ومن الغريب حقيقة أن نرى كيف أن التفكير الرسمي الاسرائيلي على كل المستويات المدنية والعسكرية كان مأخوذاً باعتقاد جازم أن مصر لن تحارب . وكان الاستثناء الوحيد تقريباً – بحسب ما جاء في تقرير اجرانات – هو التحذير الذي وجهه الجنرال ديان وزير الدفاع الى هيئة الاركان العامة يوم ٢١ مايو (ايار) وقال فيه : " نحن ، اعضاء الوزارة نقول للاركان العامة : ايها السادة استعدوا للحرب من فضلكم .. ضد أولئك الذين يهددون بشن الحرب وهم مصر وسوريا .... وعلينا ان نضع في الحساب ان تجدد القتال يمكن ان يحدث في نهاية الصيف " ومع ذلك فإن اسرائيل عاشت قبل ذلك في أوائل شهر مايو (ايار) في خوف زائف عقب الاجتماعات العسكرية التي تمت في مصر والتي تم فيها (وهذا بطبيعة الحال شيء لم يستطيعوا أن يعرفوه) وضع خطة عملية بدر . فقد اصدر الاسرائيليون عندئذ قراراً لا ضرورة له الى التعبئة ، وكلفهم ذلك أموالاً كثيرة ، وبعدها بدوا وكأن اهتمامهم قل بالتطورات الجارية على الجانب الآخر من القناة .

ويجب الاعتراف بأن الجنرال ديان انتقل الى الجبهة الشمالية يوم ٢٦ سبتمبر (ايلول) عقب اشارة تحذير من الجنرال اسحق هوفي قائد تلك الجبهة يعرب فيها عن عدم ارتياحه للتعزيزات السورية ، وأصدر أوامره بتعزيز الدبابات والمصفحات ، لكنه أجل اتخاذ أي اجراء آخر الى أن يستشير جولدا مائير رئيسة الوزراء ، وكانت في ذلك الوقت في فيينا ترجو المستشار النمسوي الدكتور كرايسكي أن يوقف قراره باغلاق معسكرات النمسا في وجه المهاجرين اليهود المتجهين من روسيا الى اسرائيل . والواقع ان اهتمام الاسرائيليين كلهم ، ابتداء من رئيسة الوزراء فنازلاً ، كان مركزاً على فيينا ، الى حد الاهتمام الكامل بما يجري عبر القناة . وفي ذلك اليوم نفسه فقط .. يوم الثلاثاء ... عادت مسز مائير الى اسرائيل من فيينا .

وقد اشار الرئيس السادات في توجيهاته الى نشاط منظمات المقاومة الفلسطينية . وفي يوم الاثنين هذا ، وصل عدد من ضباط المقاومة ونحو ١٢٠ من رتب اخرى الى القاهرة للاشتراك في المعركة . وقد جاؤوا بدعوة كان الرئيس وجهها الى منظمة " فتح " قبل ذلك ببضعة اسابيع يطلب فيها الاجتماع ببعض كبار المسؤولين . وفي لقائه بهم أوضح الرئيس لصلاح خلف (أبو اياد) وفاروق قدومي (ابواللطف) ان الموقف متوتر جداً ، وان مصر مضطرة الى تنشيط جبهة القناة ، وفهما من الحديث ان

ما تعتزمه مصر هو استئناف حرب الاستنزاف ، وان مهمة المقاومة ستكون على الارجح الاشتراك في عمليات فدائية داخل سيناء .

وللمناسبة ، ففي هذا اليوم نفسه ، الثاني من اكتوبر (تشرين الأول) وقعت واحدة من تلك الحوادث السخيفة غير المتوقعة لخرق ستار السرية ، كان من الممكن ان يترتب عليها افساد العنصر الباقي من عناصر المفاجأة . ففي ذلك اليوم ، نشرت وكالة انباء الشرق الاوسط نبأ يقول أن الجيشين الثاني والثالث – وهما الجيشان اللذان أوكلت اليهما مهمة شن الهجوم عبر القناة – قد وضعا في حالة تأهب . وكان المفروض أن يصدر هذا الخبر في نشرة خاصة محدودة ترسل الى عدد قليل جداً من كبار المسؤولين ، لكنها - نتيجة خطأ من محرر الآلة الكاتبة – أرسلت الى كل آلات " التيكرز " والى جميع المشتركين . وحدثت ضجة شديدة اعقبها قرار بخفض درجة مديرالوكالة . ومع ذلك لم يترتب على نشر النبأ اي ضرر.

وأمضى الرئيس صباح يوم الا ربعاء ٣ اكتوبر (تشرين الاول) في وضع اللمسات الأخيرة للخطط السياسية والعسكرية وللبلاغات التي تقرر اصدارها . وقدم له حافظ اسماعيل مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي مسودات البيانات التي ستلقى باسم مصر في مجلس الامن ، والتعليمات التى سترسل الى الدكتور محمد حسن الزيات في نيويورك عقب بدء القتال مباشرة . (وقد ذكر تقرير لجنة اجرانات ان جولدا مائير قضت الصباح في تقديم تقرير الى وزرائها عن مهمتها في فيينا) .

وفي الصباح نفسد امكن العثور على الذريعة التي ستتخذها مصر بدءا للقتال . كان توتر الموقف يتصاعد ويشتد على كل الجوانب ، وتقرر التذرع بالادعاء انه وسط هذا التوتر كله قام الاسرائيليون بهجوم على الزعفرانة في البحر الأحمر. وكان التوقيت قد اصبح الان واضحا من الناحيتين السياسية والعسكرية. وكان القرار ان يقطع راديو القاهرة ارسال البرامج العادية في الساعة الأولى والنصف من بعد ظهر يوم ٦ اكتوبر (تشرين الأول) ليذاع منه نبأ يقول : "جاءنا الان ان عناصر من القوات الاسرائيلية المسلحة هاجمت مواقعنا في الزعفرانة. وهذا الهجوم يمثل خرقا خطيرا لوقف اطلاق النار، وقد ابلغ الأمر مجلس الامن ". وبعد اذاعة النبأ يستأنف الراديو اذاعة البرامج العادية ، على ان تقطع في الساعة الثانية لتبدأ اذاعة المارشات العسكرية لمدة ١٠ دقائق ، تعقبها اذاعة نبأ عن رد مصر على العدو الذي لا يحترم قرارات مجلس الأمن او الرأي العام العالمي ، ثم عودة الى مزيد من المارشات العسكرية حتى الساعة الثانية والنصف حيث تبدأ نشرة الأخبار بانباء عن الهجوم الاسرائيلي ، ومذكرة مصر الى مجلس الأمن ، ورد مصر على الهجوم . وبعد قراءة خبرين عاديين يقطع المذيع القراءة ليعلن : " تلقينا على الفور البيان التالي : بدأت الآن عمليات عسكرية واسعة النطاق ، وتوجه الرئيس أنور السادات القائد الاعلى للقوات المسلحة الى مقر قيادة الجيش ليتولى الاشراف عليها بنفسه " . وكان هذا هو البلاغ الأول عن الحرب .

وفي اليوم نفسه .. الاربعاء.. طار الفريق أول أحمد اسماعيل وزير الحربية واللواء بهي الدين نوفل رئيس هيئة أ ركان حرب القيادة الاتحادية من القاهرة الى دمشق ، واضطر وسط خطورة الموقف الى تجاهل مبدأ أساسي من مبادىء الأمن بعدم سفر اثنين من كبار الضباط على طائرة واحدة . وكان لرحلتهما هذه هدفان : ابلاغ السوريين اختيار ٦ اكتوبر (تشرين الأول) لبدء حملة " بدر " ، والوصول الى اتفاق نهائي في شأن الساعة التي يبدأ فيها الهجوم . وكان اللواء نوفل قد اتصل بالفريق أول أحمد اسماعيل قبل ذلك بيومين ملحاً على ضرورة ابلاغ السوريين على الفور اختيار يوم ٦ أكتوبر (تشرين الأول) حتى تتوافر لهم الايام الخمسة التي وعدوا بها لتفريغ معامل التكرير في حمص ، ورأى الفريق اول أحمد اسماعيل ان هذا القرار من الخطورة الشديدة بحيث لا يمكن ارساله باللاسلكي حتى ولو بالشيفرة . وكان من المقرر أن يسافر هو نفسه الى دمشق في اليوم التالي (الثلاثاء) ، واقترح أن يصحبه اللواء نوفل في رحلته ، لكن الرحلة تأخرت يوماً آخر ... الى يوم الأربعاء .

وفي دمشق اجتمع الاثنان مع اللواء طلاس واللواء شكور . وحين ابلغوهما قرار موعد بدء عملية " بدر " ابدى اللواء شكور ضيقاً ، واحتج بأن في ذلك خرقاً للوعد الذي قطع لهم بمنحهم فترة خمسة ايام كاملة لتفريغ معامل التكرير في حمص ، وقال انه من المستحيل أن تبدأ سوريا بالهجوم يوم ٦ ، ولا بد من التأجيل يومين . كما ابدى قلقه البالغ من النبأ الذي اذاعته وكالة انباء الشرق الاوسط عن وضع الجيشين الثاني والثالث في مصر تحت التأهب . ورد الفريق أول أحمد اسماعيل بان أي تاجيل سيكون في غاية الخطورة ، ذلك انه لو فرض ان اسرائيل لم تلتقط نبأ وكالة انباء الشرق الأوسط ، فإن من الممكن في أية لحظة أن تنتبه الى التصاعد الشديد في الاستعدادت المصرية في جبهة القناة ، بعدما بات من المتعذر اخفاؤها ، واملنا الأكبر أن نهاجم بأسرع وقت ممكن ، فكل يوم يتأجل يتيح للعدو فرصة ٢٤ ساعة اخرى يحسن استخدامها . وهنا قال القائدان السوريان ، ان هذا خلاف لا يمكن ان يحله الا الرئيس الأسد .

وبالنسبة الى الساعة التي يبدأ فيها الهجوم ظل اللواء شكور متمسكاً بأن يبدأ السوريون هجومهم مع ضوء الفجر الأول ، بينما ظل المصريون الذين تدربوا على القتال ليلاً متمسكين ببدء الهجوم بعد الظهر. وقد حاول الفريق أول أحمد اسماعيل اقناع اللواء شكور بأن الفجر هو بالضبط الفترة التي يرجح أن يتوقعها الاسرائيليون للهجوم عليهم ، ولذلك فإن من الافضل جداً بالنسبة الى الهجوم عبر القناة الانتظار إلى أن تصبح الشمس في أعين العدو . (وكل وجهات النظر هذه كانت في الحقيقة نوقشت من قبل) . وعند هذه النقطة تدخل اللواء نوفل ليقول انه إذا بدأت الطائرات السورية غاراتها المقررة على مطارات " رامات دايفيد " و " عقير " فإن الطيارين قد يجدون اهدافهم مغطاة بالضباب ... وهو ما ثبتت صحته بعد ذلك .

وهكذا تقرر أن تعرض النقطة الثانية – ساعة بدء الهجوم – على الرئيس الأسد ايضاً ، وفي الاجتماع مع الرئيس الأسد عرض الجانبان وجهات نظرهما ، مع تأكيد من جانب الفريق أول أحمد اسماعيل انه إذا فاتت هذه الفرصة فسيمضي وقت طويل قبل أن يمكن تنسيق العمل على الجبهتين في مثل هذه الظروف المواتية ، وكان مما قاله : " اننا نقوم بمخاطرة .. لكنها مخاطرة محسوبة " واقترح – كحل وسط – أن يبدأ الهجوم في الساعة الثانية بعد الظهر .

وقال الرئيس الأسد انه لا يود ان يتسبب في اية تعقيدات في اللحظة الأخيرة ، وأضاف : " اني موافق على يوم ٦ ، وموافق على البدء في الساعة الثانية بعد الظهر، لأنها تهيىء لكل منا بعض المزايا ". وقال اللواء شكور ان حماسة السوريين بالنسبة الى المعركة لم يتأثر على الاطلاق بالتغييرات التي حدثت " وأضاف : " إذا حدث فشل على الجبهة المصرية فانه سيكون بمثابة نهاية العرب ، ونهاية سوريا ايضا. أما اذا حدث الفشل على الجبية السورية، فلن يكون في ذلك النهاية . ان آمالنا كلها معلقة على مصر " .

وسأل الرئيس الأسد القائدين عما اذا كانا يظنان ان الاسرائيليين سيضربون المدن ، وما اذا كنا نحن سنضرب المدن حتى لو لم يضربوها هم . ورد الفريق اول احمد اسماعيل بأننا مستعدون ، وقال : اذا ضربوا مدننا فاننا سنضرب مدنهم . وقال اللواء شكور: " نصيحتي .. وللتاريخ .. أن نتجنب ضرب المدن بقدر الطاقة " ، ثم أعاد تأكيداته على ان تبذل سوريا كل ما في وسعها لضمان النجاح على الجبهة المصرية ، وقال : " إذا سقطت دمشق فإن من الممكن استعادتها ، أما إذا سقطت القاهرة ، فإن الأمة العربية كلها ستسقط " .

واتفق في الاجتماع على ألا يسافر الفريق أول احمد اسماعيل واللواء نوفل مرة اخرى على طائرة واحدة ، وعلى أن يعود اللواء نوفل عن طريق عمان لابلاغ الاردنيين تحذيراً مقنعاً بالنسبة الى خطورة

الموقف ، وقد اجتمع برئيس الاركان الاردني في عمان ، وأبلغه أن لدى مصر معلومات ان الاسرائيليين يعبئون قواتهم وانهم ربما كانوا يخططون لشيء ضد سوريا ، ونصح الاردنيين باعلان حالة التأهب والاستعداد لأي احتمال ، كذلك فإنه انتهز فرصة وجوده هناك ليتفق على شيفرة جديدة للاتصال مع عمان .

وطبقاً لما يقوله تقرير لجنة اجرانات فإنه في الوقت نفسه من يوم ٣ اكتوبر (تشرين الأول) الذي كان فيه الرئيس الأسد مجتمعاً بالفريق أول احمد اسماعيل في دمشق ، كانت جولدا مائير – وقد عادت من فيينا – قد دعت الى اجتماع حضره آلون وجاليلي وديان والبريجادير جنرال آريي شاليف نائباً عن الجنرال زائيرا مدير المخابرات الحربية الذي كان يومها يشكو من الانفلونزا . وفي هذا الاجتماع عرض شاليف تقريراً للمخابرات ينتهي بأن " امكان شن الحرب من جانب المصريين والسوريين أمر غير محتمل في نظري ، لأنه لم يحدث أي تغيير بالنسبة الى تقييمهم لموقف القوات في سيناء يدفعهم الى شن الحرب " . ولم يكن بين الحاضرين من اختلفت وجهة نظره مع هذا التقييم . وفي نهاية الاجتماع قررت جولدا مائير أن تضع مسألة الأمن على الحدود في جدول أعمال الاجتماع العادي لمجلس الوزراء المقرر انعقاده يوم ٧ اكتوبر (تشرين الأول) .

وحين عاد الفريق أول أحمد اسماعيل الى القاهرة مساء يوم الاربعاء ، دعا كبار الضباط الى اجتماع شرح فيه نتائج محادثاته في دمشق ، وسأل عنا إذا كانت هناك أية دلائل على ان العدو ادرك حقيقة ما يحدث . واجيب عن سؤاله بأنه ليس هناك شيء ايجابي يمكن ان يقال في هذا الشأن ، لكنه مع ذلك أصدر أمراً آخر يستهدف تعزيز صورة الخداع .. واتفق على أن يعود بعض جنود الاحتياط الذين استدعوا في سبتمبر (ايلول) للاشتراك في مناورات " تحرير ٢٣ " الى بيوتهم ، على أن يكونوا في مواقعهم مرة أخرى يوم ٦ .

وكان من بين لمسات خطة الخداع واحدة من نصيب صحيفة " الاهرام " . فقد أعطى مندوبها العسكري نبأ صغيراً يقول أن القائد العام أعد قائمة ليسجل فيها من يود من الضباط السفر للعمرة اسمه . وحين رأيت النبأ فهمت ما يعنيه . وقلت للفريق أول أحمد اسماعيل : " لا بأس ، ان معنى ذلك اننا سنصبح كذابين ، لكني أقبل ذلك من أجل خاطرك " . وبعد ذلك ، وحيث كان من المعروف ان الاسرائيليين يحصلون يومياً على نسخة مبكرة من " الاهرام " عن طريق قبرص ويدرسونها بعناية ، فقد طلب إلى " الاهرام " أن ينشر نبأ آخر يقول ان وزير الحربية يستعد لاجتماعه مع وزير الدفاع الروماني الزائر لمصر يوم ٨ اكتوبر (تشرين الأول) . وكانت المخابرات هي التي كتبت النبأ ، واتفق على ان يصدر منسوباً الى مندوب " الاهرام " العسكري الذي كتب مقالاً عن تصعيد الاسرائيليين للموقف على الجبهة الشمالية محذراً الاسرائيليين بأنهم يلعبون بالنار لأن مصر لن تقف موقف المتفرج الخ ... وكان ذلك كله جزءاً من الجو العام لتعزيز الخطة من دون تقديم شيء يمكن ان يكون ذا فائدة حقيقية للعدو .

كذلك فان الفريق اول احمد اسماعيل اصدر أوامره بأن يعدل تقدم مناورات " تحرير ٢٣ " لتتفق مع متطلبات الموقف المتصاعد على الجبهة الشمالية ، خصوصاً ان الكلام في الصحف كان قد كثر في كل مكان عن التوتر الذي اعقب المعركة الجوية فوق سوريا ، وكان من شأن عدم اتخاذ أي اجراء في هذا الشأن ان يثير الشكوك . وطلب من المخابرات تقديراً لعدد القوات التي يمكن لاسرائيل أن توفرها للجبهة الاردنية في حالتين : حالة اشتراك الاردن في المعركة ، وحالة وضع قواته في حالة تأهب فقط.

وعند هذا الحد لم يكن في مصر من لايشعر بأن ثمة شيئاً وشيك الوقوع ، وان لم تكن هناك اية اشارة الى ان الاسرائيليين يعرفون شيئاً . وبدأ ذلك أمراً غير مصدق ، ومرة اخرى كانت هناك بعض القرائن الواضحة التي يحتمل ان تقع في يد اسرائيل ، وعلى سبيل المثال فقد كانت هناك مادة كيماوية معينة

ترش على ملابس الجنود لتحميهم من نار النابالم (لقد لقي عدد كبير جداً من الرجال عام ١٩٦٧ مصرعهم حرقاً بالنابالم الذي استخدمه الاسرائيليون من دون تمييز ضد القوات المنسحبة بغير انتظام في سيناء) . وهذه المادة لاترش على الملابس الا مرة واحدة ن وبالتالي تصبح الملابس عديمة الفائدة بعدها . ولهذا السبب ، فإنها لا تستخدم في المناورات أبداً ، ومع ذلك فقد صدر الأمر باستخدامها في ساعة مبكرة من صباح يوم ٦ اكتوبر (تشرين الأول) . ولدى الاسرائيليين – كما تعرف السلطات المصرية جيداً – هيئة تجسس نشطة تعرف باسم " متيكال " وتتكون من عدد من اليهود معظمهم من المصريين – يتكلمون اللغة العربية – تسللوا الى منطقة القناة وجهزوا بأدوات ارسال المعلومات الى اسرائيل . ومن المحتمل ان يكون هؤلاء الجواسيس قد ابلغوا رؤساؤهم ما حدث فهيأوا للقيادة الاسرائيلية العليا فترة تحذير مدتها ست ساعات على الأقل . كذلك فإن القذائف التكتيكية نقلت الى منصاتها فجر يوم ٦ اكتوبر (تشرين الأول) . وكان هناك احتمال ان تكون عملية النقل هذه قد رصدت وابلغت الى الاسرائيليين أيضاً وزودتهم بالتحذير .

وعلى سبيل المثال ايضا، فان العديد من الملحقين العسكريين شاهدوا معدات انشاء الجسور تنقل عبر الطريق الخلفي قرب مطار القاهرة الى طريق السويس . والأخطر من ذلك ان مسؤولاً كبيرا في الخطوط الجوية المدنية المصرية بلغ به الاقتناع أن الموقف يتصاعد بدرجة قد تكرر معها اسرائيل ضربتها الجوية الوقائية في العام ١٩٦٧ الى الحد الذي جعله يرسل عن طريق " التلكس " امرا الى كل طائراته في الخارج يطلب منها ان تبقى حيث هي . وحيث ان مطار القاهرة يقع بالقرب من احدى القواعد الجوية ، فان هذا المسؤول - اضافة الى ذلك - اصدر امرا بالغاء كل الرحلات الجوية وباجلاء جميع الطائرات ، وبينها عدد من طائرات " البوينج " الجديدة التي كان لخوفه عليها ما يبرره . وهكذا لم يجد مئات المسافرين الذين توجهوا الى المطار طائرات يسافرون عليها . و حين سمع الفريق اول احمد اسماعيل بالنبأ ساوره القلق ، وطلب من وزير الطيران المدني ان تستأنف كل الطائرات رحلاتها العادية . ولكن كانت قد مرت عندئذ ست او سبع ساعات . وكان هذا الاجراء من جانب مسؤول شركة الطيران المصرية - وان لم يكن في وسعه بطبيعة الحال ان يعرف ذلك - مناقضا تماما لخطة الخداع العامة التي كان من بين ماتضمنته ان يستمر الضباط في حضور كل الحفلات التي يدعون اليها ، وان يستمر الجنود في السباحة في القناة حتى آخر لحظة ، وهكذا...

وفي يوم الخميس ٤ اكتوبر (تشرين الأول) كان الرئيس السادات يستعد للانتقال من منزله في الجيزة الى قصر الطاهرة حين طلب السفير السوفيتي مقابلته على عجل . وقد حضر في نحو الساعة السابعة مساء يحمل معه رد بريجنيف على الرسالة التي سلمه اياها الرئيس يوم الاثنين . وكما كان متوقعاً فإن بريجنيف اعرب عن وجهة نظره في ان القرار الخاص بأية مليات قرار يتخذه الرئيس وحده ، وأضاف أن الاتحاد السوفيتي سيقدم اليه عون الصديق ، لكن بريجنيف طلب ايضاً أن يسحب المستشارين المدنيين الروس وأسرهم من مصر . وحار الرئيس في أمر هذا الطلب ، لكنه واق عليع غير راض عنه ، وانتهز الفرصة ليؤكد على ضرورة الاسراع في ارسال بعض المعدات التي طلبتها مصر من الاتحاد السوفيتي ولم تصل .

وعندما انتهت مقابلة السفير السوفيتي انتقل السادات الى قصر الطاهرة حيث ارتدى الملابس العسكرية ، وعقد اجتماعاً أخيراً حضره نواب رئيس الوزراء ، ووزيري الحربية والداخلية ، وحافظ اسماعيل ، واتفق خلاله على اجراء تعديلات جذرية في اللجان الخاصة التي كان من المقرر تشكيلها لمعاونة الرئيس . فقبل كل شيء كانت هناك رسالة من اسماعيل فهمي الموجود في فيينا يقول فيها ان المستشار كرايسكي طلب اليه البقاء لأنه يريد ان يجتمع به مرة اخرى بعد ظهر يوم الجمعة ، ويسأل : هل يعود أم يبقى ؟ وقد طلب منه الرئيس السادات ألا يلغي هذا الاجتماع ، لأن التغيير قد يتسبب في اثارة التعليقات . وهكذا فإن وزير الخارجية ووزير الداخلية بالنيابة القائم بأعماله في لجنة الشؤون الخارجية المقترحة سيكونان خارج القاهرة . وتقرر بعد ذلك الغاء لجنة الشؤون الداخلية بحيث تحل محلها

مجموعة من داخل الوزارة نفسها برئاسة الدكتور محمد عبد القادر حاتم نائب رئيس الوزراء . ونقل سيد مرعي من الجبهة الداخلية ليتولى الاتصالات مع الدول العربية ، كما عهد الى الدكتور عزيز صدقي الذي كان وزيراً للصناعة طوال سنوات عدة وله صلات طيبة بالحركة العمالية ، أن يتولى مسألة المنشآت الامريكية في الشرق الاوسط ، وكان المأمول أن تتعاون الدول المنتجة للبترول بالضغط على الأمريكيين ، فإذا لم تتحقق هذه الآمال فقد يصبح من الضروري التفكير في وسائل أخرى لممارسة الضغط .

ولقد كان من أهم المسائل التي شغلت الرئيس خلال الساعات القليلة الأولى لوجوده في قصر الطاهرة رد بريجنيف الذي حمله فينوجرادوف . كان الجزء الاول من الرد هو ما كان الرئيس يتوقعه ، وهو ان الروس تركوا قرار خرق وقف اطلاق النار له . لكن ما اثار حيرته هو الجزء الثاني من الرسالة، وهو مطلبهم الخاص بالسماح لهم بسحب المستشارين المدنيين الروس واسرهم ، ماالذي يعنيه ذلك ؟ وهلفي ذلك ما يحمل معنى انهم يخشون نتيجة المعركة ؟ أو أن ذلك يعكس بعض جوانب توازن القوى العالمي ؟ وإذا كان ذلك هو السبب فهل يمكن أن يعني ذلك أن الروس لن يقدموا اليه العون الذي يتوقعه ؟ وفي آخر الأمر أوى الرئيس الى فراشه في الساعة الرابعة صباحاً من يوم الجمعة ٥ اكتوبر (تشرين الأول).

وفي هذه الاثناء كان المركز الرقم ١٠ قد اغلق تماماً بالنسبة الى العالم الخارجي . كان على كل من كان يسمح له بالدخول أن يبقى داخله .. لا خروج مطلقاً . فالكل عندئذ كان على علم بموعد المعركة وأهدافها . ولم ينم أحد من الموجودين في المركز الرقم ١٠ أو في المركز الرقم ٣ لفترة طويلة في تلك الليلة . الكل كان يسأل : " هل عرف الاسرائيليون ؟ " . وفي نحو الساعة التاسعة والنصف صباحاً ارسلت طائرتان اسرائيليتان للاستطلاع والتصوير ، لكنهما لم تدخلا المجال الجوي المصري لأن اجهزة كاميراتهما تستطيع التصوير من داخل سيناء . وقد التقطت القوات المصرية اشارات اجهزة الاستطلاع وايقنت ان الاسرائيليين لا بد أن يكونوا قد عرفوا الآن على الأقل بوجود معدات الجسور والعبور الموجودة بالقرب من القناة . كذلك فإنه بدا من غير الممكن انهم لم يعرفوا ان ٦ طائرات من طراز " اليوشن " قد هبطت بين الساعة السابعة من بعد الظهر لتحمل المستشارين واسرهم ثم غادرت ارض المطار . وبازدياد التوتر ، كنت تشاهد القرآن الكريم على العديد من مكاتب الضباط .

وفي تلك الليلة - ليلة الخميس/ الجمعة - كان الاسرائيليون يتلقون سيلاً متزايدا عن المعلومات عن تحرك قواتنا ، لكنهم- بحسب ما يقول تقرير لجنة اجرانات - لم يكونوا حتى ذلك الوقت قد تمكنوا من معرفة حقيقة ما يجري . وفي الوقت الذي اوى فيه الرئيس السادات الى فراشه ، كان ديان يوقظ من نومه ليجتمع بالجنرال اليعازر رئيس الأركان . وقد قرر كلاهما ان يتوجها الى منزل جولدا مائير وطلبا من الجنرال زئيرا نائب مدير المخابرات ان يصحبهما ، وقدموا اليها صورة للموقف ، وقال اليعازر انه قد يضطر الى وضع القوات المسلحة في حالة تأهب قصوى . وعلى رغم انه لم يطلب اعلان التعبئة العامة ، فانه اقترح الغاء الاجازات في الوحدات الجوية والمدرعة ، وقال انه سيحشد المدرعات على الجبهتين . وقررت جولدا مائير ان تدعو مجلس الوزراء الى الاجتماع بعد الظهر، بحيث يتسنى لجميع الوزراء الوقت الكافي للحضور، لكنها عادت فرأت ان الموقف اخطر من ذلك، ودعت اعضاء وزارتها الكبار الى اجتماع يعقد عند الظهر. وقد حضر هذا الاجتماع كل من بارليف وديان وحزاني وبيريز وجاليلي ورئيس الاركان ونائب مدير المخابرات الذي كان تقديره " اننا لا نواجه حربا شاملة " ، وايده في ذلك اليعازر. واتفق على عدم اصدار أمر بالتعبئة العامة الى ان يتوافر المزيد من الادلة عن نوايا العدو.

ويوم الجمعة ٥ اكتوبر (تشرين الاول) اجتمع الدكتور الزيات بثلاثة من وزراء خارجية الدول الغربية الموجودين في نيويورك : كيسينجر وجوبير ودوجلاس هيوم . وقال له كيسينجر انه لم يبدأ بعد بحث "

دوسيه " الشرق الأوسط وان على المصريين ان يستعدوا لفتحه بعد انتهاء الانتخابات الاسرائيلية . وقال ايضا انه يأمل في ان يستطيع القاء نظرة عليه قبل نهاية السنة . وقال لي جوبير انه آسف لأن مصر مستمرة في اثارة المشكلة نفسها في الأمم المتحدة عاما بعد عام ، وانه لا أمل في اي تغيير ما لم يفعل المصريون انفسهم شيئا . اما دوجلاس هيوم فلم يكن يرى اي عامل جديد في الموقف ، ومن رأيه ان على المصريين ان يحاولوا التفاوض مع الاسرائيليين بعد انتهاء الانتخابات الاسرائيلية .

واحس الزيات بشعور من الانقباض في اعقاب هذه المحادثات ، ونسي انه كان مدعوا في ذلك المساء الى حضور حفلة في بيت الدكتور عصمت عبد المجيد مندوب مصر الدائم لدى الأمم المتحدة اقامها تكريما له . وقد ذهب الى الحفلة بعد اتصال تلفوني يذكره بها . وهناك قال لمضيفه انه لا يرى مبررا للحفلة ، واضاف : " لا استطيع ان اعرف ما تحتفل به الليلة.. الا ان يكون عيد الغفران : (يوم كيبور)!!

وهناك في المركز الرقم ١٠ حدث بعد ظهر يوم الجمعة مشهد مؤثر بدأه الفريق اول احمد اسماعيل بحضور الرئيس السادات . فقد طلب من جميع الحاضرين ان يقسموا على القرآن القسم التالي : " نقسم بالله العظيم على هذا القرآن أن يبذل كل منا ما في وسعه حتى النفس الأخير لننجز المهمة الملقاة على عاتقنا ".

وفي تلك الليلة حضر الى بيتي الدكتور اشرف غربال مستشار الرئيس للشؤون الصحافية، وجلسنا معا في غرفة مكتبي نراجع التفاصيل الاخيرة للبلاغات والمذكرات التي سرعان ما سنحتاج اليها . وكنا كذلك ننتظر وصول انباء من الزيات عما تم في اجتماعه مع كيسينجر، لكن ذلك تأخر.

وفي تقرير أجرانات ان الساعة كانت الخامسة من صباح يوم ذلك السبت ٦ اكتوبر (تشرين الاول) حين تلقى ديان في منزله مكالمة تلفونية (لم يذكر التقرير ممن كانت المكالمة) تبلغه ان احتمال حدوث هجوم في يوم كيبور يجب ان يكون الان امرا متوقعا حتما ، لكن المتحدث حدد موعد بدء الهجوم بالساعة السادسة لا الساعة الثانية . واتصل ديان بالجنرال اليعازر رئيس الاركان الذي اوصى باعلان التعبئة الكاملة حتى يمكن اتخاذ الاستعدادات للقيام بهجمات مضادة واسعة النطاق بعد ان يتم احتواء هجمات العدو الأولى ، بينما طلب ديان مجرد تعبئة قوات كافية لعمليات الدفاع فقط . و ترتب على ذلك تأخير ساعتين في انتظار قرار رئيسة الوزراء بالتعبئة العامة . وقد صدر القرار في الساعة التاسعة والربع بعدما بحثت مسألة توجيه ضربة وقائية ورفضت . وتقول لجنة اجرانات ايضا ان هذا القرار اتخذ لأسباب سياسية ، واعتقد شخصيا ان أي محاولة للقيام بضربة وقائية ضد مصر كان المفروض أن توجه لجدار الصواريخ ، لكن مثل هذه الضربة كانت ستفشل تماما من الناحية العسكرية ، فضلا عن انها ستكون محفوفة بالمخاطر من الناحية السياسية . فهي لم تكن ستؤثر على الاطلاق على خطة الهجوم المصري . وقد استدعت جولدا مائير السفير الأمريكي الى مكتبها في الساعة العاشرة والنصف، وعقدت اجتماعا لوزرائها في الساعة الثانية عشرة . وقد وردت الأنباء الاولى عن الهجوم المصري وكان مجلس الوزراء لا يزال منعقدا .

وقد اتصلت جولدا مائير بوزير خارجيتها أبا ايبان الموجود في نيويورك بالتلفون في نحو الساعة العاشرة و ١٣ دقيقة (هناك دائرة تلفونية مغلقة بين وزارة الخارجية الاسرائيلية في القدس ، والسفارة الاسرائيلية في واشنطن، لكن هذه الدائرة لم تستخدم في هذا الاتصال لأن أبا ايبان كان يحضر جلسات الجمعية العامة في نيويورك ويقيم في فندق والدورف أستوريا في نيويورك) . وطلبت مائير الى ايبان ان يتصل بكيسينجر ، وان يطلب الاجتماع بنيكسون ، ويقنع نيكسون بالاتصال ببريجنيف عبر الخط التلفوني الساخن (المباشر) ويبلغه ان لدى الاسرائيليين دلائل قاطعة على ان المصريين على وشك ان يهجموا ، وانه اذا كان السبب في ذلك هو ما نشرته الصحف العالمية عن الحشود الاسرائيلية ، فان في

استطاعته أن يؤكد لبريجنيف ان اسرائيل ليست لديها أي نية للهجوم . وعلى بريجنيف ان يبلغ هذه الرسالة الرئيس السادات. وقالت جولدا مائير لايبان ان كل دقيقة لها اهميتها .

وصباح السبت اتصل الرئيس السادات تلفونيا بالسفير السوفييتي من قصر الطاهرة ودعاه الى مقابلته في الساعة الحادية عشرة والنصف. وكان الرئيس لا يزال قلقا بالنسبة الى نوايا السوفييت. كانت الطائرات السوفييتية قد جاءت لتنقل المدنيين، لكنها لم تكن تحمل اية معدات . وقال الرئيس : " لقد كنتم في منتهى السرعة بالنسبة الى المدنيين من ابنائكم ، لكنكم لم تكونوا بمثل هذه السرعة بالنسبة الى المعدات التي طلبتها " . وقال الرئيس بدوره ان كل دقيقة لها اهميتها . واذكر اني حين سألت فينوجرادوف في ما بعد عما اذا كان قد فهم من هذه المحادثة التلفونية شيئا مما كان في الجو، اجاب انه استنتج ان هناك عملية ما على وشك ان تبدأ ، لكنه لم يدرك انها ستبدأ بعد ذلك بساعتين فقط . وعلى اية حال فانه اتصل ببريجنيف على الفور عن طريق وصلة تلفونية خاصة بين السفارة السوفييتية في القاهرة وموسكو انشئت يوم اقيم نظام الدفاع السوفييتي في مصر سنة ١٩٧٠.

ولا بد من القول ان مسألة توقيت هذه الاحداث والرسائل كلها مسألة هامة وموضع بعض الجدل . ففي مؤتمره الصحافي الذي عقده كيسينجر يوم ٢٥ اكتوبر (تشرين الأول) قال : " ان الأزمة بالنسبة الينا بدأت في الساعة السادسة من صباح يوم ٦ اكتوبر (تشرين الأول) حين ايقظت بالتلفون وابلغت ان حربا عربية- اسرائيلية قد بدأت ". ومن هذا يفهم ان القتال قد بدأ . لكن فرق الوقت بين نيويورك والقاهرة او تل أبيب هو ٧ ساعات . ومعنى ذلك ان الساعة السادسة صباحا في نيويورك تعني الواحدة بعد الظهر في القاهرة . ولم تبدأ عملية " بدر" الا في الساعة الثانية بعد الظهر"

كذلك ، فان جولدا مائير اتصلت تلفونيا بايبان بين العاشرة والربع والعاشرة والنصف، ثم استقبلت السفير الامريكي الذي حاول على الفور الاتصال بالبيت الابيض وبالمخابرات الامريكية، كما حاول ايقاظ كيسينجر الذي كان احد مساعديه قد ايقظه بالفعل لابلاغه ان ايبان يريد محادثته لأمر مهم وعاجل جدا. وهكذا ، فانه يكون تحدث الى ايبان في السادسة و ١٠ دقائق (الواحدة و ١٠ دقائق بتوقيت القاهرة) وبعد ان حصل كيسينجر على بعض التأكيدات من المخابرات الامريكية والبنتاجون ، اتصل بالزيات الذي كان بدوره يقيم في فندق والدورف استوريا ليبلغه ان ايبان اتصل به توا ، وقال له ان لدى اسرائيل معلومات ان مصر تعتزم الهجوم ، وان ذلك ربما يكون نتيجة سوء فهم يمكن توضيحه. ثم قال : "ان كنتم تظنون ان اسرائيل ستهاجمكم فاني استطيع ان اؤكد لك ان هذا غيرصحيح . فهل يمكنك ان تبلغ هذه الرسالة للرئيس السادات على الفور ؟ " . وسأله الزيات كيف يمكنه ان يبلغها وليست هناك وسيلة لاتصاله بالقاهرة . فرد كيسينحر قائلا : " سأطلب الى مكتبي ان يرتب لك على الفور خطا من البيت الابيض ينقله لك " . وتم ذلك بالفعل ، وامكن الاتصال بالقاهرة على الفور. وفي الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والعشرين كان الزيات يتحدث الى حافظ اسماعيل مستشار الرئيس لشؤون الامن القومى بعد ان تعذر الوصول الى الرئيس نفسه . وابلغ الزيات حافظ اسماعيل بما قاله له كيسينجر ، ورد حافظ اسماعيل ان مصر لم تهاجم اسرائيل ،وان اسرائيل هي التي تهاجم مصر في خليج السويس. وعاد الزيات فاتصل بكيسينجر وابلغه ما قاله له حافظ اسماعيل . ورد كيسينجر انه ليست لديه معلومات في هذا الصدد ، وانه سيعاود الاتصال به. وبعد ذلك بخمس دقائق ، في الواحدة والنصف تماما ، اذاع الراديو نبأ الغارة على الزعفرانة . وفي الواحدة و ٣٥ دقيقة تلقى حافظ اسماعيل مكالمة تلفونية اخرى ، وكانت هذه المرة من فينوجرادوف يسأل عما اذا كان يستطيع ان يقابل الرئيس السادات. لكن الرئيس لم يكن على استعداد لمقابلته ، اذا كان الغرض منها محاولة وقف الهجوم الذي لم يكن قد بقي على بدئه الا اقل من نصف ساعة . وقيل لفينوجرادوف ان الرئيس غير موجود، فقال لحافظ اسماعيل ان اسرائيل اتصلت بالامريكيين شاكية انكم تعدون لهجوم عليها . وقيل له ان اسرائيل هي التي تهاجمنا بالفعل . وهذا كله يبين بجلاء مدى سرعة الاتصالات عند الازمات في هذا العصر الحديث . ففي خلال نصف ساعة فقط اتصل كيسينجر بايبان وبالزيات وبموسكو، واتصل الزيات كما اتصلت موسكو بالقاهرة .

كان الرئيس السادات انتقل في الساعة الثانية عشرة والنصف الى المركز الرقم ١٠ بعدما استقبل فينوجرادوف (في الحادية عشرة والنصف من صباح يوم السبت) . وكانت الصورة هناك مختلفة تماما عما كانت في اليوم السابق حين ادى الحاضرون قسم تأدية الواجب . كانت الخرائط المعلقة على الجدران عندئذ لمناورات " تحرير ٢٣ " ، لكنها في هذا اليوم اختفت ، وحلت محلها خرائط " بدر"، وكان الرئيس يرتدي زيه العسكري كقائد اعلى للقوات المسلحة .

وفي تل ابيب اجتمع الجنرال زئيرا مدير المخابرات الحربية مع جولدا مائير ، وعقد بعد الاجتماع مؤتمراً صحافيا للمراسلين العسكريين الاسرائيليين . وفي اثناء حديثه عن الموقف على جبهة القناة دخل مدير مكتبه قاعة الاجتماع وقدم اليه ورقة القى عليها نظرة ، وقال للحاضرين : " انها تقول انها حربا قد تنشب في اي لحظة " ، ثم اكمل ما كان يتحدث فيه . وماهي إلا برهة حتى قدمت اليه ورقة اخرى القى عليها نظرة ثم غادر القاعة وعاد ليقول : " أيها السادة ... الاجتماع انتهى" . وفي اثناء نزول المراسلين في مصعد وزارة الدفاع ، كانت صفارات الانذار قد بدأت تدوي في الجو .

وفي الساعة الثانية والدقيقة الخامسة (ساعة الصفر) بدأت اولى الانباء عن المعركة تصل الى المركز الرقم ١٠ . وكان الرئيس والفريق اول أحمد اسماعيل يستمعان الى النبأ بدهشة ، وبدا وكأن ما يرونه مجرد عملية تدريب . وكان النبأ يقول : " العملية انجزت .. العملية انجزت ". وكان ذلك اجمل من ان يصدق . وفي الثالثة والنصف اتصل الرئيس السادات تلفونياً بفينوجرادوف ، كان يريد ان يكون السفير السوفييتي اول من يعلم بما حدث ، ليطمئنه اولاً ، وليعده للمطالب الخاصة بتعويض المعدات التي لم يكن طلبها ليتأخر طويلاً . وقد قال لي فينوجرادوف في ما بعد أنه كان يتناول طعام الغداء بمفرده في الطابق الثاني من مبنى السفارة حين قيل لى ان الرئيس ينتظر على التلفون . ودهش، لانه كانت هناك منذ مدة وصلة تلفونية خاصة بين الرئاسة والسفارة ، وواضح ان هذه المكالمة جاءت على الخط العادي . وسأل فينوجرادوف : "أمتأكد انت من انه الرئيس؟ "، وجاء الرد بالتأكيد . فأخذ السماعة، وسمع صوتا يقول باللغة العربية : " السفير"؟ . ورد بالانجليزية : "نعم . انا السفير". فقال المنادي : "الرئيس يريد ان يتحدث اليك ". ولم يصدق فينوجرادوف ان الرئيس هو الذي يطلبه على الخط العادي في ذلك اليوم، لكنه سمع صوت السادات نفسه - وكان ضاحكا- يقول لى : " فينوجرادوف .. ان اولادي يركبون الان خط بارليف . لقد عبرنا القناة . وأريدك ان تتصل تلفونيا باصدقائنا في موسكو وتقول لهم ان اولادي يقفون الان على الضفة الشرقية للقناة ". ورد فينوجرادوف : " تهنئتي كلها.. يا سيادة الرئيس ". وقال الرئيس : " الفريق اول احمد اسماعيل معي ، ويريد ان يتحدث اليك لان هناك الكثير يحتاج اليه منكم لاكمال المهمة". واعطى الرئيس سماعة التلفون للفريق اول احمد اسماعيل الذي قال لى ان الموجة الاولى عبرت في امان ، وان الكثير من النقط الحصينة على خط بارليف قد سقطت ، وان الخط كله فقد قيمته بالفعل .

ولم تكن فرحة الرئيس والقائد العام ودهشة السفير بالامر المستغرب . ذلك ان الخبراء العسكريين كلهم، بما فيهم الخبراء السوفييت ، كانوا على الدوام يؤكدون خطورة القيام بهجوم عبر القناة ، وصعوبة دك استحكامات خط بارليف، تحت وطأة نيران المدافع وقنابل الطائرات ، واحتمال استخدام النابالم في القناة . وكانت القيادة المصرية مستعدة لتحمل خسائر بشرية تصل الى ٢٦ ألف مقاتل في المرحلة الاولى للهجوم ، فلما انجزت المهمة في هذه السرعة من دون خسائر تذكر، احس الجميع كأنهم في حلم . وقد سارع فينوجرادوف فعقد اجتماعا لاثنين من الجنرالات من اعضاء السفارة لمعاونته فى اعداد تقرير يبعث به الى موسكو

وحدث بعض التأخير في نقل الجيش الثالث عبر القناة بسبب بعض المشاكل الخاصة بمعدات الجسور. وكان ذلك مدعاة قلق من جانب الرئيس السادات ، لكنه كان يشعر بأن عليه ان يترك الامر للعسكريين يحلون هذه المشاكل، وهكذا فانه عاد الى قصر الطاهرة . وفي تلك الاثناء كانت الانباء عن اقتحام خط بارليف وافقاده قيمته بعد ثلاث ساعات فقط من القتال قد انتشرت في العالم ، وبدأ الرئيس يتلقى سيلا من المكالمات من زعماء العالم العربي . كان اول من اتصل به الرئيس العراقي احمد حسن البكر الذي اشترك عدد من طياريه بطائراتهم من طراز "هوكر هنتر" في الطلعات الجوية الأولى . وتبعه الملك حسين ملك الاردن ، فالرئيس الجزائري هواري بومدين ، فالرئيس التونسي الحبيب بورقيبة. وقد اعربوا جميعهم عن تهانيهم الحارة ، وسألوا عن الطريقة التي يمكنهم فيها تقديم العون .

وبعد ١١ ساعة من بدء المعركة وصلت من نيويورك برقية بالشيفرة من الزيات تقول ان كيسنجر عاد الى واشنطن، وانه اتصل بالزيات من هناك واثار بضع نقاط " اولها ، انه كان متفائلاً بعد حديثه مع الزيات يوم ٥ اكتوبر (تشرين الاول) في ان يبدأ كلاهما جهدا جديدا ومؤثرا من اجل الوصول الى تسوية، لكن احداث اليوم جاءت مفاجئة تماما، ويخشى ان تخرج الامور من ايدينا اذا لم يتوقف القتال خلال فترة معقولة . ثانيا ، ان التقييم الامريكي- وقد يكون ذلك خطأ بطبيعة الحال - هو ان المصريين هم الذين بدأوا القتال . ثالثا ، ان الامريكيين يقدرون انه اذا استمر القتال فانه سينتهي بنصر للاسرائيليين ، وان قيام الاسرائيليين بهجوم مضاد شامل امر مرجح في اية لحظة خلال الثماني والاربعين ساعة المقبلة . رابعا ، اذا حدث ذلك فانه يريد ان يؤكد للمصريين ان الولايات المتحدة لن تسمح لاسرائيل باحتلال مزيد من الاراضي . خامساً ، انه - كيسنجر- سأل الزيات عن رأيه في فكرة قرار يصدره مجلس الامن بوقف اطلاق النار مع عودة الى الخطوط التي كان الجانبان يحتلانها قبل بدء القتال . سادسا ، انه يرى ان اي مناقشة في الجمعية العمومية عندما تجتمع يوم الاثنين لن تؤدي الا الى تعقيد الموقف ".

وقال الزيات ان رده كان على الوجه التالي : اولا، انه فهم مما قاله كيسنجر في اجتماع يوم ٥ اكتوبر (تشرين الاول) ان اسرائيل مقتنعة تماما بقدرتها على اطالة اجل وقف اطلاق النار الى ما لا نهاية، وليست لديها اية نية لتغيير الموقف الراهن . وكان كيسنجر قال لى ان الولايات المتحدة غير قادرة على اجبار اسرائيل على قبول نوع التسوية الذي يمكن ان تقبل بها مصر. وعلى ذلك فانه ايا تكن النتائج التي ستسفر عنها احداث اليوم ، وايا يكن ما سيتبين انه مصدرها ، فان من الواضح ان قناة السويس لا يمكن اعتبارها بعد الان حاجزا لايمكن اجتيازه ، كما لا يمكن اعتبار وقف اطلاق النار حالة دائمة. ثانيا، ان عودة العرب الى الخطوط التي كانوا يحتلونها قبل بدء القتال معناه بالنسبة الى مصر تراجع الى ما وراء قناة السويس ، وهو امر لا يمكننا قبوله ، فضلا عن ان ذلك شيء لا يجرؤ هو نفسه- الزيات- حتى على ان يقترحه على القاهرة . وقد يكون من المناسب اكثر ان يرتبط قرار جديد يصدر بوقف اطلاق النار بالعودة الى خطوط ما قبل يونيو (حزيران) ١٩٦٧(بدلا من خطوط ما قبل ٦ اكتوبر (تشرين الاول) . ثالثا ، انه ليست لديه تعليمات من القاهرة بالنسبة الى اثارة المسألة امام مجلس الامن او الجمعية العمومية ، ولكن اذا كانت لديه- كيسنجر- اي مقترحات معقولة يتقدم بها فانه مستعد لا بلاغها الى القاهرة . رابعاً ، ان كيسنجر رد انه فهم ما قاله الزيات له ، لكنه يريد ان يبلغه رسالة عليه ان يمحصها جيدا : ان احداث اليوم بالغة الاهمية . (وهنا نقل الزيات كلام كيسنجر بالانجليزية) . " لقد سجلتم نقطة قوية ، لكني آمل الا تتصرفوا بطريقة تخرج الامور من دائرة سيطرتكم ". واخيرا قال كيسنجر انه سيعاود الاتصال بالزيات فى اليوم التالي .

•••

كيف حدث ان فوجيء الاسرائيليون كليا- استراتيجيا، وتكتيكيا على السواء؟

١- في رأيي ان الاسرائيليين اساؤوا فهم التاريخ تماما . فالاختلاف بين الاسطورة والتاريخ – وهذا واحد من المآزق الخفية للصهيونية يمكن ان يؤدي الى الخلط بين الاثنين – هو انك حين تتعامل مع الاسطورة ، فانك تتعامل مع شيء محدد ، جامد ، ومن اعمال الماضي ، في حين ان التاريخ عملية مستمرة . واذا فكرت في طريقة الاسطورة فانك ستجد نفسك تتعامل مع الثوابت لا مع المتغيرات .. مع السطح وليس مع الاعماق . والصهيونية اسيرة اسطورتها : اسطورة الشعب المختار والارض الموعودة و" الماسادا " و غيرها .

٢- ان الاسرائيليين قللوا تماما من شأن ميزان القوى بين العرب واسرائيل . فتوازن القوى العسكري او السياسي بين ١٠٠ مليون عربي ، و ٣ ملايين اسرائيلي لا يمكن الابقاء عليه الى الابد . وربما كان من الممكن للاتحاد السوفييتي والصين - ٣٠٠ مليون في مقابل ٨٠٠ مليون - ان يحتفظا بنوع من التوازن على رغم هذا الفارق العددي ، ولكن نسبة ١٠٠ الى ٣ نسبة لا يمكن تعقلها . ومع التكنولوجيا الحديثة تصبح الفجوة من حيث عدد السكان اكثر اهمية . وعلى سبيل المثال ، فان قذيفة ستريلا (سام ٧) التي لعبت ذلك الدور الكبير في حرب اكتوبر (تشرين الاول) سلاح صغيرو بسيط نسبيا يمكن رجلاً واحداً ان يحمله ويطلقه و يشغله من دون معرفة تكنولوجية واسعة . ومع ذلك ، فانه سلاح فتاك بالنسبة الى اسرع الطائرات الحربية الحديثة واشدها تعقيدا . ويضاعف من اهمية العدد بالطبع ان يكون للكم وزن كيفي ايضا. وما لم يدركه الاسرائيليون حق الادراك ، هو ان ما لا يقل عن ١٠٠ الف من بين الـ ٨٠٠ الف مقاتل مصري تحت السلاح ، كانوا من خريجي الجامعات او المعاهد العليا . وكان من بين الخطوات التي اتخذها عبد الناصر ايام كان يعيد بناء الجيش بعد سنة ١٩٦٧ اصدار امر بانه لا بد ان يكون المسؤولون عن المعدات الالكترونية في مواقع الصواريخ والرادار وادارة معارك الدبابات من خريجي الجامعات ومن كليات الهندسة كلما أمكن ذلك . وهكذا بدأت مصر تنافس اسرائيل من حيث نوعية جنودها مع ما لديها بطبيعة الحال من امكانات اكبر بكثير من حيث العدد .

٣- صحيح انه كانت هناك حالة غليان شديدة في المجتمع المصري في ما بين ١٩٦٧ و ١٩٧٣، لكن ذلك مرده الى حد كبير الى اننا لم نكن نقاتل . وان عبد الناصر قال لبريجنيف مرة : " ان لدينا مشاكلنا في الجبهة الداخلية ، لكنها مشاكل ستختفي لمجرد اطلاق الرصاصة الأولى " . وقد أساء الاسرائيليون تفسير معنى ما يجري داخل مصر ، ونسوا ان المجتمع يمكن ان يكون في حالة غليان ، ومع ذلك يمكن ابعاد قطاعات منه عن الغليان في ظروف خاصة ، اذا تحملت هذه القطاعات مهام محددة وتوافرت لها كل الطاقات الممكنة . وهذا ما انطبق على الجيش في مصر الذي عينت له مهمته الخاصة المحددة المكلف انجازها .

وقد وقعت في الايام الاولى من القتال حادثة توضح هذا التغيير في طبيعة العلاقة بين الجانبين . كان اللواء حسني مبارك قائد القوات الجوية فى قاعدة المنصورة حين نشبت فوقها معركة جوية وحشية أسقطت فيها طائرة اسرائيلية ، واحس وهو يشاهدها ان الطيار الاسرائيلي لم يظهر مهارة كبيرة ، وطلب ان يراه اذ سقطت طائرته في مكان قريب . وحين جيء به اليه دار الحديث بينهما باللغة الانجليزية . سأله اللواء مبارك : " ما الذي جرى لمستوياتكم في السلاح الجوي ؟... انكم تغيرتم ! ". ورد الطيار الاسرائيلي : " لسنا نحن .. وانما- في ظني – انتم الذين تغيرتم " .

٤- في خلال هذه السنوات تعرض الجيش الاسرائيلي لتغيير ملحوظ ، فقد تحول الى خطوط الدفاع الثابتة بدلاً من الاعتماد على الحركة ، وهناك دائما خطر ان يضعف النصر نوعية الجيش ، وقد اصابت العجرفة الجيش الاسرائيلي بعد العام ١٩٦٧ بالعمى التام بالنسبة الى ما يجري امام عينيه مباشرة . فظن ان من المستحيل تحديه ، وان لديه القدرة على مواجهة اي هجوم . ويتبين هذا بجلاء من تقارير المخابرات الاسرائيلية التى ظلت تصل الى لحظة بدء القتال ، وكلها تستبعد وقوعه . يضاف الى ذلك ان القوات الاسرائيلية لم تكن تعلم انه كانت في داخل سيناء بالفعل مساء يوم الجمعة ٨ دوريات من

رجال القوات الخاصة يؤدون مهماتهم ، بينما كانت هناك دوريات اخرى تعمل في القناة نفسها، تقطع الانابيب التي كان الاسرائيليون يعتزمون اغراق القناة بالنابالم الخارج منها .

٥- ان الجنرالات الاسرائيليين غرقوا في خضم الحياة السياسية ، واصبحوا يقضون وقتا طويلاً في الحياة العامة والخاصة . وكان هناك وقت عاش فيه الجنرالات الاسرائيليون عيشة التقشف والجلد ، لكن العالم أصبح يسمع بعد ذلك عن المجوعة الاثرية التي يقتنيها ديان ، وعن مشاكله الزوجية والعاطفية، كما بدأ يسمع عن الجنرالات بسياراتهم الفارهة وسيجارهم الكبير . وقد تكشف السخط على هذا المسلك في الشعر الاسرائيلي المعاصر الذي ترن في صوته نبرة تمرد عالية .

٦- كان بناء خط بارليف نصرا للسياسة على الاستراتيجية . فبعد معارك ١٩٦٧، كان الجيش الاسرائيلي يفضل عسكريا ان يتمركز في المضايق ، ومن هناك يواجه احتمال اي هجوم مصري، لكنهم في اسرائيل فضلوا ان يحضروا عند القناة لأنهم ارادوا- كما يقول ديان- ان يزنوا في آذان عبد الناصر والشعب المصري ، ونسوا ان النصر الذي قدم اليهم على طبق من الفضة عام ١٩٦٧، لم يكن بفضل عبقرية اسرائيلية، انما كان نتيجة فشل عربي .

وقد اخذ الاسرائيليون على غرة على رغم ان الدليل كان هناك امام اعينهم ، لو انهم كانوا مستعدين لأن يروا ويفهموا . ومما يدعو الى السخرية انهم لم يقدروا ابدا ان مشكلة مصر الرئيسية في التخطيط ، كانت محاولة مضارعة عنصر المفاجأة الذي طبقته اسرائيل بنجاح في ضربتها الجوية المفاجئة فجر يوم ٥ يونيو (حزيران) ١٩٦٧.

واذكر ان الفريق عبد المنعم رياض رئيس الأركان في ذلك الوقت ، ومن خيرة القادة الذين انجبتهم مصر، قال لعبد الناصر في احد الاجتماعات العسكرية في خريف ١٩٦٧، وهو يبحث معه مسألة عنصر المفاجأة ، وكيف يمكن ان تحصل عليه مصر في اي معركة مقبلة : " ان المفاجأة ستكون لنا حتما.. ذلك ان مجرد بدئنا نحن بأي هجوم على الاطلاق ، سيكون في حد ذاته اهم عنصر من عناصر المفاجأة .. ان العدو لن يتوقع منا الهجوم اطلاقا " . وقد اثبتت الايام صدق ذلك الى حد بعيد، بعد ذلك بست سنوات.